THE GUARDIAN OF
THE LAST TALES

حارس الحكايات الأخيرة

أحمد الملواني

KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE

رواية

(1)

نزلت بالقرية في منتصف نهار صيفي. أزعجني الهدوء، وربضت على أنفاسي لسعات برد طفيفة في الهواء. شعرت بفقد للضجيج والسخونة، واختبأت وراء أمنية صامتة بانتهاء سريع من مهمتي، والعودة لبيتي وأحزاني.

المقهى الذي حللت به كان من تشابك أعواد الخوص الهشة. مزروع عند حافة الماء. كان خاليًا، إلا من بضع عجائز، ورائحة زفارة سمك لا تطاق، لم أدر مصدرها. كانت تقريبًا تنضح من كل شيء. وكأنها رائحة الخوص، والمقاعد، والطاولات. حتى أنها أطلت علي من مذاق كوب الشاي الرديء.

سألت النادل -وهو يهم عائدًا بالكوب الفارغ- عن الصيادين، فأجاب أنهم بالتأكيد في طريق عودتهم. بعد دقائق ضج المكان بالصخب والحركة. تحول إلى قطعة حية من مدينتي، فشعرت ببعض الألفة والسلوى في مراقبة المراكب المتهالكة وهي تصل إلى المرفأ تباعًا. ومع وصولها تدور حركة التحميل، والتفريغ، والوزن، والبيع والشراء. ومع انتهاء الحركة في كل مركب، يمتلئ قدرًا من المقهى بالصيادين والمراكبية المنهكين. يسفحون كميات كبيرة من الشاي الغامق والحكايات.

مع انتهاء العمل في المرفأ، امتلأ المقهى إلا من بقعة صغيرة، تعلقت بها الأعين مترقبة، ثم عادت النظرات نحو أفق البحر مترقبة، وكأنما ينتظرون عودة الغائبين. مرت دقائق طويلة، تراكمت فوق بعضها مُشكِلة ساعات من عمر الليل، والبقعة الصغيرة لم تزل فارغة. عندها سمعت من يقول في إعلان حداد أن المركب لن تعود. ليضع رفاقه عنوة أمام الحقيقة التي صارت تشاركنا مجلسنا بوقاحة، حقيقة أنهم فقدوا مركبًا جديدًا اليوم. عندها حملت حقيبتي ونهضت عازمًا إلقاء خطاب طويل. لكن الصوت انحبس حين مواجهة النظرات، فاكتفيت بتعريف، وقول مقتضب..

«أنا عالم بحار، تم إرسالي إلى هنا للتحقيق في شكواكم عن اختفاء المراكب المتكرر»

عندها اهتزت الأرض تحت أقدامنا بشدة، حتى بدا وكأن الخوص سينهار فوق رؤوسنا. تمسكنا، وحمينا الأكواب والزجاجات من الوقوع، حتى انتهاء الهزة العنيفة. منهم من سب الأرض وجنونها. منهم من ذكرنا -دون حاجة- بزيادة معدلات تلك الهزات الأرضية مؤخرًا. ومنهم من قال:

«ربما هو المسئول عن تلك الزلازل»

سألته:

«من؟»

فلم يجب، ولم أكن أجهل الجواب، فقد قرأت قبل مجيئي إلى هنا نصوص الشكاوى المرسلة منهم لكل الجهات الحكومية المعنية. وكلها تضمنت تلك الكلمة المبهمة المخيفة (وحش). ذكرتهم مرة أخرى أني هنا للتحقيق، ولا يجب إغفال أية معلومات. ضغطت بالكلمات على صمامات البوح، فانفجرت. كانوا ينتظرون قدومي بالتأكيد، وبدا هذا في لمعة أمل تجول بين أعينهم. ومن أفواههم تناثرت الاعترافات والشهادات أمام وجهي. فأسرعت محاولا لحاقها بقلمي، وحبسها في دفتري الصغير.

«شقيقي اختفت مركبه بكل طاقمها دون أثر»

«وابن عمي كذلك، ومسعود، وخليفة وابن شقيقه نعمان»

«وصابر أيضًا»

«واليوم الحاج كرم ورجاله. كلهم اختفوا بمراكب صيد عملاقة دون أثر»

«بحثنا عنهم لأيام»

«البحر لم يلق بجثث أو حطام. لا شيء. وكأنما تبخروا»

أشرت لهم بيدي أن يتمهلوا، فقد كانت كل الكلمات تلقى على أذني متزامنة فلا أكاد أدركها.

«وأنتم تتهمون وحشًا أنه المتسبب في هذا؟»

«بلى. فبيننا من لمحه في الظلام. هناك عند الأفق. بل هو نفسه الأفق»

«أنا رأيت ذيله الضخم يخرج من الماء فيغطي احمرار الشمس الغاربة، ويحيل السماء لليل بلا نجوم»

«وأنا رأيت حدبة ظهره تخرج من الماء كجزيرة عملاقة»

واصلت الانصات وعقلي يرسم صورة محتملة.

«ربما هو حوت ضخم»

«كلا.. ليس مجرد حوت، ولا حتى حوت ضخم. لا يوجد شيء بهذه الضخامة»

أتجاهل مبالغاتهم، والتي توجها أحدهم بطرح فرضية أن يكون هذا الحوت هو الدابة التي ستخرج لتكلم الناس في آخر الزمان. مستشهدًا بالهزات الأرضية المتلاحقة، وتخوفات

العلماء من معناها.

«الدابة تعني ما يدب على الأرض.. وبالتالي الحيتان ليست من الدواب»

«كذلك الحيتان الطبيعية لا تتكلم»

«وهل يتكلم حوتكم هذا؟!»

«بالطبع.. وإلا من صاحب صوت الغناء الذي نسمعه آتيًا من البحر في الليالي؟»

أقرأ ما دونته من أقوال وحكايات في دفتري..

«إذن هناك حوت ظهر بشكل مفاجئ في بحركم.. حوت ضخم...»

«ليس مجرد حوت»

«حسنًا.. هو يهاجم المراكب.. يقتل الصيادين.. ويغني في الليل؟»

«وهو سبب الزلازل»

«الزلازل ظاهرة تحدث في كل أنحاء العالم.. وليس فقط في قريتكم»

طرقت طرقتين بسن القلم الرصاص فوق الورقة..

«هل شاهده أحدكم يهاجم المراكب؟»

الإجابة كانت بالنفي الجماعي..

«إذن كيف تعلمون أنه المسئول عن اختفائها؟»

«ومن غيره؟! هل هي مصادفة أن تختفي المراكب في ذات وقت ظهور ذلك الوحش في بحرنا؟»

ما هي الاحتمالات المطروحة أمامي؟ صدقهم؟ ربما ليس احتمالًا مطروحًا. فماذا غيره؟ الهلوسات الجماعية، أمر في غاية السخافة. الكذب الوبائي ربما؟! المبالغات هي الاحتمال الأكبر. هؤلاء البسطاء لم يروا حوتًا في حياتهم، فما أدراهم بأحجامه الطبيعية. هناك حيتان ضخمة في هذا العالم، بالتأكيد بالنسبة لقوم كهؤلاء، هي وحوش وليست مجرد حيوانات. أكتب في دفتري: «حوت ضخم». هل تسبب في غرق بعض المراكب؟ ربما. لكنه في النهاية مجرد مسكين تائه. هو في مكان لا يعلمه، أسير مياه لم يعتدها، وقريبًا سيموت، وربما كان يحتضر في هذه اللحظات بالفعل. وماذا عن الغناء؟ ربما الهلوسات الجماعية ليست بهذا السخف!

«وماذا عن فاطمة؟»

اهتز القلم في يدي. لماذا يذكروتها أمامي؟ عدت إلى مقعدي، أنقذ البدن من المزيد من التهالك. استويت جالسًا وأنا ألوم سخافات العقل، ليس كل «فاطمة» هي «فاطمتك»! سألتهم لأقنع عقلي..

«ومن هي فاطمة؟»

«فتاة اختطفها الوحش من منزلها»

تلقى القائل طعنات حادة من نظرات المحيطين، تحمل لومًا على انفلات لسانه بما لا يصح أن يقال أمامي! لاحقته مسرعًا بسؤال:

«وكيف لوحش بحري أن يختطف فتاة من منزلها؟!»

لم أتلق إجابة لسؤالي، فقط تبادلوا النظرات، وكأنما يخشون الإفصاح.

«أين ستبيت ليلتك؟»

أحدهم سألني، ففهمت أنها محاولة لتغيير مجرى الحديث..

«سأعود إلى أقرب مدينة»

«أم فاطمة يمكن أن تؤجر لك حجرة في منزلها. هناك ستكون قريبًا. ربما تسمع غناءه. ربما حتى تراه، وربما تعرف ما صار لفاطمة. فليس مسموح لأي منا تداول سيرتها، احترامًا للأم المكلومة»

كان هو صاحب الاقتراح الأخير من قادني إلى بيت أم فاطمة. سرنا في منحنيات من شوارع بالغة الضيق. كان يحمل عني إحدى الحقيبتين ولا يتكلم. دخلنا في منطقة مظلمة، فقال:

«معظم القرية فقدت الكهرباء. تبدو الزلازل مسئولة عن هذا، ولا نية عند الحكومة لإصلاح الأمر»

«هذا حال معظم دول العالم. ليست قريتكم فقط من افتقدت لبعض الخدمات مؤخرًا»

عند بيت خشبي يعانق موج البحر توقفنا. البيت مرتفع عن سطح الأرض، ست درجات خشبية قادتنا إلى بابه. طرقه الرجل، ففتح على وجه شمطاء عجوز تحمل في يد مصباح كيروسين، يشع ضوءًا ورائحة نفاذة. وفي يد أخرى تتمسك بعصاة تقود خطواتها.

«الرجل غريب عن القرية، أتى للتحقيق حول الوحش، ويريد أن يستأجر حجرة في بيتك»

قربت المرأة مصباحها من وجهي، فلفحتني الحرارة، مع المزيد من الرائحة النفاذة. تأملتني بنظرات صعدت من حذائي إلى قمة رأسي، ثم عادت في الاتجاه المعاكس.

«امسح حذاءك جيدًا واتبعني»

ناولني الرجل الحقيبة معلنا اكتفائه من تلك الرحلة، واستدار عائدًا. تبعت العجوز إلى داخل بيتها. بيت خشبي تملأه رائحة يود البحر. نوافذه مفتوحة على الماء، والظلام، وريح شمالي قوي.

«عندي ثلاث حجرات للإيجار»

فتحت باب إحدى الحجرات، فكان هواؤها أشد، ونافذتها المفتوحة تخبر أن الحجرة مبنية تمامًا فوق الماء.

«هذه أعلاهم سعرًا. كانت لابنتي فاطمة»

«هل تؤجرين حجرتها؟!!»

لم أتلق منها ردًا. فقط تقدمت إلى صدر الحجرة، ليكشف ضوء مصباحها كامل التفاصيل، فراش صغير، ودولاب شاغر بلا أبواب. ترابيزة وكرسي خشبيين، وصورة على الحائط لفتاة جميلة تضحك. أمام الصورة أدت عيناي صلاة جنائزية، وفي قلبي انفتح متسعًا لحزن مبهم.

«أهذه هي؟»

«بلى»

«ماذا جرى لها؟»

من جديد تجاهلتني. في صمت وضعت المصباح فوق المنضدة الخشبية.

«سأترك لك هذا المصباح هنا. إيجار الحجرة عشرون جنيهًا لليلة الواحدة. وهو سعر غير قابل للتفاوض. والدفع مقدم»

أخرجت من جيبي عشرين جنيهًا. اختطفتها من يدي.

«أخبريني بما حدث لفاطمة»

تأملت وجهي بنظرات قاسية. عيناها ميتتان، يستحيل أن تقرأ بهما شعورًا، وهو ما

يجعلهما مخيفتين. قررت أن أستغل ما لدي من سلطة لأدفعها للحديث.

«أنا عالم بحار. ومهمتي هنا قصيرة وهدفها أن أفهم ما يحدث في بحركم. ولقد عرفت أن هناك رابطًا ما بين ابنتك رحمها الله وبين الحوت»

حافظت على قسوة النظرات وحدتها.

«من قال لك أن فاطمة ماتت؟»

للحظة استعدت الكلمات القليلة والحديث المقتضب الذي دار في المقهى عن فاطمة.

«هذا ما ظننته. هم حدثوني فقط عن اختفائها؟ قالوا أن الوحش اختطفها»

أطلقت في الهواء سبة ساخطة.

«الصيادون التعساء، يلقون الحكايات على أذن غريب بائس مثلك لمجرد أمل أحمق في الخلاص»

صدمتني وقاحة كلماتها. كنت أبحث عن جواب مناسب حين بدا وكأنما قررت فجأة البوح.

«هذه النافذة هي مبتدأ الشر»

أنظر عبر النافذة. منظر لا يصدق لامتداد البحر والليل، وكأنني في سفينة يتلاعب بها الماء.

«منها كانت تراه. ومنها كانت تسمع صوته. كان يأتيها مقتربًا ويحدثها في بعض الليالي. وكنت أنا أدعي النوم خوفًا. حتى ابتلعها ذات ليلة ومضى»

«عمن تتحدثين؟»

صرخت في وجهي كما لم أتوقع:

«يا لك من أحمق. أتحدث عنه بالطبع. الوحش»

أربكني أسلوبها المفاجئ.

«تقصدين أن الحوت كان يقترب من تلك النافذة، ويتحدث مع ابنتك؟!!»

ابتسمت متهكمة.

«من الحمق أن تكرر كلمات الآخرين. أتعجب أن يرسلوا رجلا بطيء الفهم مثلك

للتحقيق في أمر كهذا»

كدت أن أجيب تطاولها بما يمائله دون تحفظ، لولا أن بدأت الأرض رقصة جديدة. البيت كان اهتزازه عنيفًا. مخيف أن تعلم أنك واقف فوق أرض ترفعها أعمدة خشبية مزروعة في رمل البحر. لم أتحمل مخاوفي فارتكنت إلى الفراش متشبثًا، حتى توقف الاهتزاز. اعتدلت، وابتسمت مداريًا شعور الحرج.

«هذا مخيف»

ضربت بعصاها على الأرض.

«هذا هو الوحش يسخر منا»

مللت التكرار، ولكن قلت:

«الزلازل ظاهرة جيولوجية تضرب العالم كله»

«تقصد أن الوحش لا شأن له بها؟»

«بلى، هذا ما أقصده»

«لماذا إذن يغني بعد كل اهتزاز؟»

كدت أصارحها بأن الحيتان لا تغني، لولا أن سمعته لحظتها. الغناء الخشن كان بعيدًا، يصعب تمييز الكلمات، أو التحقق من نبرات الصوت. فقط إيقاع متآكل لصوت عميق بعيد جدًا، كهمهمة دافئة تداعبها الرياح، فتحطمها وتلملمها. تقدمت من النافذة، أتأمل مساحات العتمة، وأنصت لعزف الموج المنفرد، على هامش الغناء. عدت ألتفت إلى العجوز. كانت تبتسم متشفية. شريرة الملامح هي كما يليق بساحرات الحكايات. لن أندهش إن علمت أنها تتحول إلى غولة وتلتهم الأطفال. ربما هي من التهمت فاطمة، واتهمت -ظلمًا- حوتًا مسكينًا.

«هل تفسرين ما يقول؟»

«أحيانًا. شيء ما عن نهاية العالم»

«أهذا هو ما يحدث؟ النهاية؟»

ابتسمت.

«هذا هو المصير الذي يحمله لنا»

استدارت تضرب الأرض بعصاها، وتجر ما بقي من جسد أهلكه الزمن، مغادرة الحجرة.

«نهاية العالم لن تحدث بسبب حوت»

كنت لم أزل أجاهد لإقناعها بالحقيقة البدهية، وكنت لم أزل مستعدًا لبذل مزيد من الجهد، لولا أنها غادرت الحجرة وأغلقت بابها.

دارت عيناي في الحجرة على ضوء المصباح الباهت. تقدمت نحو صورة فاطمة على الجدار. وقفت أمامها متأملا. جميلة الملامح، بضحكة صافية رقيقة. أحقًا تشبه فاطمتي؟! شعرت بحزن، لا أدري على أي فاطمة منهما. أنا لم أعرف هذه الفاطمة يومًا، ولكني الآن أعرف ضحكتها. وهو سبب كاف لأرثيها.

وضعت على الفراش حقيبة ملابسي. وحملت حقيبة الجهاز بحرص، ووضعتها داخل الدولاب المفتوح. لاحظت عندها صندوقًا ورقيًا في قاع الدولاب، لم أتبينه عبر المسافات المعتمة. حملت المصباح والفضول ووضعتهما قرب الدولاب. انحنيت أفتح الصندوق فوجدته ممتلئا لآخره بالكتب. أخرجت قدرًا من أحشاء الخبيئة فوجدت عناوين متفاوتة، بين أدب وعلوم وفلسفة وتاريخ. وسط الكتب وجدت دفترًا ورديًا صغيرًا يصلح لتسجيل أحلام يقظة لشابة جميلة كفاطمة. قلبت صفحاته، كتابات دقيقة منسقة، ومزينة برسومات ورود وقلوب حمراء نازفة. ابتسمت وكأنني أتصفح عقل مراهقة أخضر. عند التدوينة الأخيرة توقفت. اقتربت أكثر من الضوء، قرأت:

"سيأخذني معه.. هو وعدني بهذا.. هو يعتقد أني أستحق هذا.. وهي أجمل كلمات سمعتها في حياتي.. الليلة.. أو ربما غدًا.. سيأتي من أجلي."

أغلقت الدفتر وأعدته إلى موضعه، والحيرة تأكل طرفي عقلي. ربما ما قرأته الآن دليلًا على كيفية ومكان اختفاء تلك الفتاة، ربما هربت مع هذا الشخص المعني في كلماتها. لكني لست هنا من أجل هذا. ربما أحمل ذلك الدفتر إلى الشرطة، ولكن بعد أن أنهي مهمتي.

أخرجت منامتي من حقيبة الملابس. ارتديتها. تركت النافذة مفتوحة، مستمتعًا بصوت الماء، ورائحة البحر، ونمت عميقًا.

***

صحوت والظلام يغلف الحجرة، فلماذا صحوت؟! ليس كابوسًا، أو صوتًا مزعجًا، بل هو شيء بداخلي. أكاد أسمع النداء في أذني، عليك أن تستيقظ الآن. نهضت جالسًا. قلبي يرتجف دون سبب مفهوم. كلا، ليس قلبي، البيت كله يرتجف. ليس اهتزازًا أرضيًا. تلك الرجفات السريعة الخفيفة ليست معتادة. شيء كذبذبة تضرب أساسات البيت. وأساسات البيت فوق الماء. عندها وجدت الطريق للبحث، البحر.

قمت مسرعًا نحو النافذة. نظرت إلى البحر، على امتداد البصر. ليس بشيء غير معتاد يحدث. أو هكذا خيلت لي العتمة في البدء، ففي العتمة تتساوى المشاهد. كنت بحاجة للحظات من التدقيق لتكتسب العينان القدرة، وأبصرها. كانت تتقدم مسرعة، تخرج شيئًا فشيئًا من قلب الظلام، إلى مناطق الرؤية. أعتى موجة رأيتها في حياتي. جدار عالي يسعى نحوي يحمل موتًا أكيدًا.

جريت نحو باب الحجرة. كنت أتحرك بسرعة كبيرة، لكن كل شيء بدا لي واضحًا، وكأنما حواسي في قمة شحذها، أو جريان الزمن صار بطيئًا. كنت ألاحظ في الظلام مكونات صالة الدار، والباب المفتوح على ظلام الشارع. عبرت الباب، فصرت ألاحظ أصوات الصراخ، وزحام الراكضين الذين أيقظتهم حواسهم السادسة كما فعلت معي. تعثرت فوق الدرجات الست، لكني هبطت فوق قدمي كقط رشيق، فواصلت الجري. لا أعرف إلى أين أذهب، فقط أتتبع حاسة الاتجاه، تقودني إلى نقطة بعيدة عن البحر الذي يرمي علينا الموت. صوت الدوي المخيف خلفي، هو لبيوت خشبية يفجرها اندفاع الماء، والصراخ العالي المبتور، هو -ربما- لناس لم يتمكنوا من ملاحظة ما يحدث إلا قبيل ملامسة الموت. لا أبالي، ولا أستدير. تتباعد البيوت، ويخف اشتباكها، وتظهر مساحات أكثر اتساعًا للشوارع. فيبدو تلاصق البشر الراكضين، كجسد واحد يسعى إلى نقطة محددة سلفًا. فأسعى بينهم. أصدم أحدهم، فيصدمني الآخر. نتخبط بلا مساحة من وقت أو رفاهية للشعور بالضيق. بدون وعي أستدير لألقي نظرة، البصر يواجه جبل الماء، فأدرك لحظتها كم هو قريب الموت، يسعى بشوق محب، فأرفض منحه أمل اللقاء، وأواصل طيراني.

أبلغ زحامًا فوق المرتفع الآمن خارج القرية، الواقفين وجوههم نحو البحر. الكادر جنوني الحركة، هدأ وأصبح كادرًا جامدًا. أتوقف. أيمم وجهي شطر البحر كما يفعلون. اندفاع الماء توقف، والموجة العاتية استقرت، والماء ابتلع أغلب البيوت.

لم يكن في وقتنا هذا وسع لما هو أكثر من الذهول الصامت. تأملت الدمار تحت أقدامنا. نسوة يبكين دون صوت، وكأنما هو تآمر عام، للحفاظ على لوحة الصمت. علينا فقط أن ننتظر انحسار الماء، وشروق الشمس، لنهبط بحثًا عن ناجين. نهار طويل ينتظرنا. أفكاري قادتني للجلوس في مكاني على تراب الأرض. تذكرت العجوز، مضيفتي. أتراها من الفئة الناجية؟ درت أبحث عنها بنظري فيما أتاحه لي ضوء الفجر الوليد. هناك رأيتها بصعوبة، تقف وحيدة فوق رؤوسنا، عند أعلى نقطة في المرتفع. تتكئ على عصاها وتتأمل أفق البحر. كيف سبقتنا إلى هذا الارتفاع؟! تذكرت باب البيت المفتوح. لقد غادرته قبلي، غادرته ولم تحاول حتى تنبيهي لما يحدث!

«إنه هو»

قالها فم قريب من أذني بهمس، لم أدر له سببًا.

«الوحش؟»

كانت عينا الرجل متسعتان بفعل الصدمة، أو بفعل جنون وقتي صنع من الخوف.

«ومن سواه. هي ضربة من ذيله. فقط ضربة واحدة»

«أو ربما هي الهزات الأرضية ما تسببت في تلك الموجة»

هز الرجل رأسه. بصق على الأرض. جنون عينيه احتواني، وبدا وكأنه يمسك اللسان عن لعني ولعن أجدادي. نهضت عن الأرض. لم أهتم بنفض التراب العالق بسروالي. اعتليت خطوتين نحو قمة المرتفع. بت أراهم جميعًا، ويرونني جميعًا.

«في النهار، بعد أن تحصون خسائركم، إن بقي لديكم مركب قادر على الإبحار، فسأستأجره منكم. سأخوض البحر بحثًا عن وحشكم هذا»

***

مع انحسار المد بان لأعيننا ما يشبه شبحًا ساكنًا للقرية. كل شيء تماهى، البيوت تمازجت أشلاؤها، ونامت بعضها في أحضان البيوت التي حافظت على تماسكها ولم تتهاوى تحت ثقل البحر. هبطنا نخوض في ماء ووحل بأقدام حافية. أمام الرائي كان البيت الخشبي المبني فوق البحر لم يزل منتصبًا. كيف نجا من عنفوان الضربة الأولى؟! كيف وهو البادي ككيان هش متهالك؟!

العجوز تأبطت ذراعي. كانت قبضتها قوية برغم رعشة محسوسة..

«ربما ما صار هو تحيته الحارة لقدومك.. ربما هو لا يحب الغرباء»

«وربما هذا الحديث محض خرافات»

قلتها بثبات، لا هم لي سوى إغاظتها، لكنها ابتسمت..

«الخرافات أقوى من مئات المدافع. إن سرى في عقول هؤلاء البسطاء -ولو فرضًا- أنك نذير شؤم، وأن قريتهم ضاعت بسبب حضورك، فسيلتهمونك حيًا»

رجفة الغضب في جسدي فاقت رجفات شيخوختها..

«أهذا تهديد؟!»

«الوحش يجب أن يترك لحاله. كيف لا ترون هذا؟ إنه مبعوث النهاية. رسول اللحظات الأخيرة. أمل النجاة الوحيد»

تركت يدي. وجهها كان محمرًا بغضب لم أفهمه. عادت تتوكأ على عصاها إلى نقطة الارتفاع. صوتها أكثر قوة من تكوين جسدها..

«أيها الناس.. افهموا.. أفيقوا.. إنه هو؟ الوحش في بحركم.. هو ليس هنا ليعابثكم وتعابثوه.. ليس هنا ليخيفكم فتخافوه.. هو هنا لسبب.. هو يبحث عمن يحمله منكم فينجيه من القيامة.. افهموا.. هو هنا لتعبدوه»

عند هذا الحد فقدت القدرة على سماع المزيد. لن أرضخ لتهديدات تلك المخرفة، سأواصل طريقي. اجتزت الأجساد الساكنة، والأعناق المشرئبة نحوها في مهابة. اجتزت أطنانًا من الأنقاض نحو البيت الخشبي. يجب أن أستعيده قبل المضي في رحلتي، جهازي الساكن في حقيبته في دولاب فاطمة.

عندما شارفت على حدود البيت، أدركت أن جغرافية الشاطئ ما عادت كما كانت. ما عاد من طريق شبه ممهد يقود لباب البيت، بل ماء بحر عال، ابتلع الدرجات الصاعدة نحو الباب، وتسلل بنعومة ليغرق أرضية المنزل الخشبية بما مقداره شبرًا من الارتفاع. اضطررت للسباحة في الماء حتى بلغت الباب. تسلقته، وقطعت خطوات تنثر حولها الماء المالح، حتى بلغت حجرة فاطمة. صندوق خبيئتها تمزق، وكتبها تسبح على وجه الماء. قبضت -بأطراف أصابع حذرة- على دفتر مذكراتها أنقذه، أخرجت حقيبة الجهاز المبتلة من الدولاب، ورفعتها فوق الطاولة، فتحتها، فكان الجهاز آمنًا لم تمسسه ماء. حملتها، وحملت حقيبة ملابسي نحو باب البيت، فأوقفتني تصورات العجز عن السباحة عائدًا بحملي هذا. عدت إلى حجرة فاطمة. دسست دفترها في واحد من جيوب حقيبة الملابس. وضعت الحقيبتين على الفراش، علّي أعود بقارب رحلتي المزعومة، فأنتشلهما. تحركت فداست قدمي جسدًا صلبًا غارقًا تحت الماء. كانت فاطمة تتأملني من هناك بابتسامتها. انحنيت وغمرت كفي في الماء وأخرجت البرواز الصغير الذي تهشم زجاجه بفعل السقوط. فعلت ما لم أفهمه. نزعت صورة فاطمة من البرواز، ووضعتها كذلك في حقيبتي.

***

ما عاد شيء كما كان، سوى اهتزاز الأرض الذي باغتنا باعتياديته مرتين. المراكب تحطمت، والممتلكات الثمينة ضاعت، والعشرات خرجوا من قبر الأنقاض إلى قبور التراب متبوعين بصلواتنا. لا شيء هنا سوى الوجوم، والبكاء المكتوم، ونظرات لا ترى مستقبلًا.

وحده ذلك القارب الصغير كان واقفًا عند نهايات القرية، صامدًا، أكثر قوة من الرجل المترنح الذي جلس فيه يتأمل البحر البعيد. تقدمت منه. كانت يده ترتفع نحو فمه كل حين بزجاجة قاتمة. وفي فواصل الرشفات كان يغني.

«أنا عند النهاية أنتظر

سيأتي ليأخذني من يدي

نحو البحر وكنوزه

وهي عند النهاية تنتظر

سيأتي ليحملها من خصرها

نحو البحر وغدره

وهو عند النهاية ينتظر

سيأتي ليسحبه من عنقه

نحو البحر وعذابه»

نغمات الأغنية بدت لي مألوفة.

«أهي أغنية للصيد؟»

بلسان ثقيل أجاب:

«بل هي أغنية لما يشبه الحياة»

كان عجوزًا بعينين لامعتين. قدرت أن السنوات الذابلة على وجهه ربما أكثر مما عاشه حقًا. كان ينظر للأمام مخاصمًا وجهي، ورائحة التخمر من فمه تخنقني.

«قاربك هو الأخير في القرية كما يبدو»

«بالفعل. وهذا يجعلني ملكًا على القرية»

قالها وضحك، ثم سعل سعالًا خشنًا.

«أو يجعلك تؤجره لي بالمبلغ الذي تريده»

«لأي غرض؟»

«ألم تعرف؟! سأخوض البحر بحثًا عن الحوت»

شرب من زجاجته.

«هذا يبدو لي كانتحار ملائم. سآتي معك»

«يكفي أن تؤجره لي»

«المحرك لن يعمل. وستحتاج لرجل قوي مثلي للتجديف»

لم ألاحظ على جسده أي علامات ولو بعيدة لتلك القوة المزعومة.

«ألن تخشى مواجهة الوحش؟»

ابتسم.

«النهاية قادمة يا صديقي. فلا يفرق على أي وجه يكون لقاء الموت»

وضع زجاجته في قعر القارب. ثم تمطى ومدد جسده.

«الغروب اقترب. عند أول ضوء صباحي نرحل»

بمجرد أن أنهى جملته، همد تمامًا، وثقلت أنفاسه. لم أجد ما أفعله سوى الانتظار. كنت جائعًا ولا أعرف ماذا أفعل في هذا. جلست على الطين بجوار القارب أتابع الحركة الدؤوب لأهل القرية. كانت الأنقاض لم تزل ترفع، والجثث لم تزل تكتشف، وبقايا البيوت لم تزل تلفظ كنوزها. بعد وقت كانت سيارات نصف النقل تحط في شوارع القرية شبه الجافة. تحمل ما تيسر من أهلها مع بقايا متاعهم، وتقلهم إلى البعيد. كل من له ملجأ في قرى أو مدن بعيدة عن غدر البحر سعى إليه، حتى شارفت القرية على الخواء. من بقي استنفد كل محاولات مهاتفة السلطات بلا جدوى، وانتهوا في حلقة جلوس على الأرض فوق المرتفع حول أم فاطمة العجوز، تحدثهم بما تعوقني المسافات عن سماعه.

عند بدايات الظلام جاءني أحدهم برغيف جاف وقطعة جبن.

«أنت ضيفنا. كان علينا إطعامك منذ زمن. لكن الأمر كما ترى»

«أرى بالتأكيد. وأنا شاكر لكم كرم ضيافتكم»

شرعت في التهام غير حذر، فتقرفص أمامي متأملا.

«لا تفعلها»

«أفعل ماذا؟»

«لا تخرج للوحش. ستموت دون شك»

«أنا عالم بحار، وهذا هو عملي. التحقق من ظواهر مثل تلك. وصدقني لطالما عرضت حياتي للخطر من أجل عملي»

«الأمر ليس فقط خطر على حياتك. ربما هو خطر على الأرض بمن فيها»

شممت رائحة أم فاطمة في الكلمات.

«هذا الجبار بالتأكيد يملك كبرياء يفوق علو السماوات. فلا تجرحه بتحديه»

«أنا لا أتحدى أحدًا. أنا عالم بحار في مهمة تقليدية للبحث عن حوت ضال»

«انت لن تفهم مهما قلنا. أليس كذلك؟»

«هو كذلك»

«ليكن الله في عونك إذن»

كان غاضبًا وهو ينهض عائدًا إلى الجمع. وكنت أنا جائعًا لدرجة تعامل معدتي مع الطعام البائس هذا كوليمة دسمة، فثقلت، وثقل معها رأسي، ونمت على الأرض بجوار القارب.

***

صحوت على صوت العراك. تمييز الوجوه عسير، فقط حركة متوترة من أجساد تغازل إبصاري الشحيح. وأصوات عصبية، ميزت بينها الصوت الخشن لبحاري، فاعتدلت. كانوا أربع رجال في مواجهته. الأصوات عالية، وبعض السباب يزينها، معظمه كان من الفم المتشقق العجوز. ما كانوا يريدونه أن يصحبني، أو حتى يمنحني قاربه. وهو كان يدافع باستماتة عن حقه في فعل ما يشاء. قول أحدهم كان غامضًا على فهمي، ولكنه حمل مفتاح نهاية الموقف.

«إن أردت أن تقتل نفسك يا رضا بسبب عاهرة لفظتك، فأنت حر. وإنما لا تقتلنا معك»

رفع العجوز كفه المرتعش، ولطم محدثه. ليكن صوت الصفعة كإعلان لسيادة الصمت. توقعت أسوأ الفرضيات. لكنهم رحلوا وهم يهددونه بأنهم سيحرقون قاربه. ويحرقوننا أحياء ونحن بداخله إن لزم الأمر. تبعتهم بنظراتي، صعدوا المرتفع. أم فاطمة كانت تنتظرهم. واقفة متحفزة. رفعت عصاها كقائد حربي، وصرخت:

«ستندمون. الموت سيلاحقكم. الموت سيلاحقنا جميعًا»

بحاري -الذي علمت أن اسمه رضا- تقدم مني.

«سنبحر الآن. لن ننتظر الضوء. الفجر قريب على كل حال»

«ألن نحتاج إلى طعام لرحلتنا؟»

قفز برشاقة تعاند عمره إلى القارب. يفعل شيء ما في المحرك المثبت عند نهايته.

«لا أظن أن رحلتنا ستكون بهذا الطول»

لم أدر إن كانت كلماته عن تفاؤل، أم عن ثقة في موت قريب.

«وإن طالت، فنحن في البحر، وليس هناك ما هو أكثر من رزق البحر»

«وماء الشرب؟»

«ملأت به القارب في نومك»

انتهى من عمله فوجدت المحرك ينفصل عن القارب، ويسقط بجواري على الأرض.

«هكذا يصبح القارب أكثر خفة»

قفز خارجًا.

«علينا أن ندفعه حتى البحر، بأسرع ما يمكننا»

نظرت نحو المتحلقين عند المرتفع.

«أيمكن أن يؤذونا؟»

«هم في المعتاد أضعف من بعوضة. لكنهم الآن خائفون. والخوف شيطان مجنون!»

نهضت لآخذ مكاني بجواره عند طرف القارب، استجمعت قوتي وشرعنا في الدفع. كان القارب ثقيلا بشكل لا يصدق، لكنه ليس بأثقل من قدرتنا على دفعه على الأرض المبتلة الزلقة. لم أكن أعرف إن كانت قدرتي على الدفع تساوي قدرة رفيقي، أم أني أتحمل العبء الأكبر هنا. فرضا يبدو عليه ما هو أكثر من هزال العمر. يبدو مريضًا، بجلده الشاحب وأنفاسه الثقيلة وصوت الحشرجة المتصاعد مع أنفاسه، حتى ظننت أنه سيسقط ميتًا قبل بلوغنا الماء. لكننا فعلناها، كاد الماء يلامس قاربنا عندما فاجأنا انقضاض شاب متحمس. كان يحمل شعلة لهب على طرف عصاه، ويطلق سبابًا بلا داعي، وهي يقذف شعلته في قلب القارب.

وراء الشاب كانت موجات متلاحقة من ذات الهجمة، تحملها المزيد من الأبدان الغاضبة.

خلعت سترة منامتي وقفزت إلى القارب، محاولا استخدامها لإخماد لهب الشعلة قبل أن يطال خشبه القديم. رضا واجه المهاجمين بشجاعة لم أفهمها في البدء، ثم أدركت أنه أخرج من جيبه مسدسا، وأدركت أن الدوي العالي، كان لرصاصة سافرت في هواء الليل إلى صدر شاب من المهاجمين فأوقعته قتيلا. المشهد تجمد. فقدت القدرة على النطق والتفكير للحظات. لكن رضا كان حاضر الذهن والاستعداد. جذبني من ذراعي إلى خارج القارب.

«ادفعه إلى الماء»

تجمدت مكاني.

«أنت قاتل!!»

«بالفعل. وسنصير قتيلين حالا إن لم تعني على دفع القارب إلى الماء»

أفاقتني قوة منطقه، فحفزت قوتي لدفع القارب. بعد ثانيتين كان الماء يؤرجحه. قفزنا إلى قلبه. تناول رضا من القعر مجدافًا، وألقى إلي بآخر.

«بأسرع ما يمكنك»

ضربنا الماء بعنف الرغبة في الحياة. فحملنا بعيدًا عن الشاطئ، والأجساد الجامدة ذهولا لم تزل. كنت أتأملهم بقلق.

«لن يلاحقونا، فلا تخف. هم يعلمون الآن أي مجنون يتعاملون معه»

maktabbah.blogspot.com

قالها وضحك. كنت متوترًا. خائفًا منه الآن، أكثر من خوفي من الغضب الذي تركناه وراءنا، والمجهول الذي نيمم شطره وجهينا. لكنني لم أعلق، أو أبدها على وجهي. أنا وهو الآن في هذا القارب. فلنعمل معًا، حتى نحيا معًا.

على يساري رأيت بيت أم فاطمة، تراقص جدرانه أمواج حانية.

«علينا أن نتجه إلى هذا البيت. يجب أن أحضر أغراضي»

«لا أهمية لشيء الآن»

«هناك جهاز كشف الأعماق. بدونه لن نجد الحوت»

بدا على وجهه التفكير.

«سنفعلها. لكن لن نلتف إلى باب البيت فيرونا. عليك أن تتسلق نافذة خلفية»

كنت أشك في قدرتي البدنية على فعل أمر كهذا، لكن دافعه كان مقنعًا، لذا وافقت. اقتربنا

من البيت، حتى لاصقنا جداره. النوافذ لم تكن عالية عن سطح الماء، لكن القارب المترجرج يصعب الأمر. قدرت أن النافذة الأولى هي نافذة حجرة فاطمة. بصعوبة استويت واقفًا فوق القارب، ومددت البصر. كان تقديري سليمًا. الحقيبتان لا تبعدان عن متناول يدي بما يفوق المترين. تسلقت النافذة ودخلت الحجرة. حملت الحقيبتين. ألقيت حقيبة الملابس إلى القارب، وناولت حقيبة الجهاز بحرص إلى رضا، ثم قفزت وراءهما إلى القارب، وانطلقنا مسرعين إلى عمق البحر.

«لقد أخبرتني أنك ستحضر جهازك. فماذا عن الحقيبة الأخرى؟»

«إنها ملابسي. بالتأكيد لن أنهي المهمة وأنا فقط بسروال منامتي»

«لن تفيدك الملابس إلى حيث نذهب»

«وماذا عن عودتي؟ هل سأعود إلى المدينة بهذه الهيئة»

نظر إلي وانفجر ضاحكًا. لم يعقب. ولم أسأله عن أسباب ضحكه. كنا قطعنا مسافة مناسبة. فتناول هو المجدافين، ثبتهما في جانبي القارب، وبدأ يداعب بهما الماء مداعبة رقيقة، وهو يغني..

«أنا عند النهاية أنتظر

سيأتي ليأخذني من يدي

نحو البحر وكنوزه

وهي عند النهاية تنتظر...»

فلم أدر كيف نمت.

***

في النوم حلمت بفاطمة، كانت فاطمتي تعيد تمثيل مشهد وداعنا، وكنت أنا أبكي كما لم أفعل في الحقيقة. وهي كانت باردة، متحجرة، وفي نهاية الحلم ابتسمت، فكانت كتطابق لصورة فاطمة هذه القرية التي أحملها في حقيبتي. فتركت البكاء وصرت أتأملها متعجبًا. عندها فتحت عيني ليطالعني وجه رضا يتأملني، فنهضت فزعًا. استويت جالسًا. للحظة بدا لي شخصًا مخيفًا. ربما غشاوة النوم، وربما تذكرت بغتة ما صار منه ليلًا. النهار كان يضيء عالمنا، والضوء ينعكس على صفحة الماء. والأرض بعيدة، لا تُرى سوى بعد جهد التدقيق. رضا كان يبدو منهكًا متعبًا. وجهه ازداد شحوبًا، وبدنه تراخى في قعر المركب، المتروك

لمشيئة تيارات البحر. برغم هذا ضحك بخشونة وكأنما يطالع أفكاري..

«لا تخشني.. فأنا لست بأكثر من سكير عجوز»

«اسمع.. أنا مكبل معك هنا. ولا أستطيع سوى أن أخشاك. لقد قتلت أمام عيني بدم بارد»

«لقد كان دفاعًا عن النفس.. نفسي ونفسك»

مددت يدي نحو حقيبة الجهاز، أبحث عن بعض الإلهاء. فتحت الحقيبة وأخرجت الجهاز منها.

«ما هو؟»

كانت به يد تشير إلى الجهاز، وأخرى ترفع زجاجة خمر إلى فمه.

«جهاز لكشف الأعماق»

أعددت الجهاز للعمل. دليت قطعة الالتقاط في الماء..

«أهو مثل الرادار؟»

«بل مثل السونار.. سيلتقط أي كائن يتحرك تحتنا»

ضبطت الشاشة، فأظهرت فراغ الأعماق أسفلنا، واعوجاجات لتضاريس طفيفة، ما زادت عن بضعة صخور.

«أيمكن أن يساعدنا في إيجاد الكنوز المخفية؟»

هززت رأس النفي..

«فقط الكائنات الحية، أو التضاريس المخفية ربما»

سبح الله، ذاكرًا أن فوق كل زي علم عليم، فرأيتها كلمات تتعارض مع إعوجاج الثمالة في لسانه. كدت أصارحه برأيي، ولو في غلاف مزاح، لكني رأيت رأسه تسقط على صدره، ونفسه ينتظم برتابة.

قضيت النهار أمام شاشة الجهاز أبحث عن أي جديد. دقائق سرقتها من عملي الرتيب، استخدمتها في إخراج قطع من ملابسي من الحقيبة، ونثرها تحت الشمس لتجف. لم أبال بالمجدافين، وتركت التيار يحملنا بعشوائية فوق ما شاء من اتساع البحر. أخرجت من الحقيبة دفتر فاطمة. مبتلا بقدر طفيف كان. فتحته تحت الشمس. أخلاقيًا ظننت ألا حق لي

في قراءته، هو قلب وعقل فتاة لا أعرفها، وليس لدي منها تصريح باقتحام ذاتها. لكن العين المشاكسة تلمست بعض الكلمات، مدعية عدم القصدية!

"لماذا أنا؟! أهو شيء في وجهي؟ أم في روحي؟ أحقًا أستحق تلك الفرصة؟ ماذا سأضيف لعالم جديد؟ وماذا عن الأرض؟ عن أمي؟ عن صداقات لم أكونها بعد؟ وحبيب جميل لم يأتني بعد؟ ماذا عن ضحكات لم أضحكها، ودموع لم أبكها على هذه الأرض؟ أنا لم أعش بعد فرحا أو حزنًا.. وهو لا يعدني بأي فرح أو حزن.. هو يعدني أن أكون أداة.. فأي وعود تلك؟!"

تركت الدفتر دون أن أكمل القراءة. انتصرت لنازع أخلاقي. صوت يسألني عن حقي في القراءة، علا فوق صرخات الفضول التي ترجوني أن أكمل. أعدت الدفتر إلى الحقيبة. قرصني الجوع والشمس كانت في الطريق لمغربها. رضا يغط في نومه. الجهاز لم يشر إلى ما يثير الريبة. سطح البحر رائق، هادئ، فكيف يسكن تحته وحش؟! الجوع هو الوحش الوحيد الحاضر الآن. لم أحتمله فأيقظت رضا.

كان الضوء يحتضر عندما جاد علينا البحر ببضع سمكات ألقمها سنارة الصيد. سألني العجوز:

«أتفضلها نيئة؟»

لم أحر جوابًا، وقد اعتقدت -أو تمنيت- أنه يمزح. ضحك وأخرج من قلب القارب موقدًا مشبوكًا في أنبوبة بوتوجاز صغيرة. وضع فوق النار المشتعلة قطعة صفيح للشوي، نامت عليها السمكات حتى نضجت. أكلنا فامتلأنا. شربت قدرًا كبيرًا من الماء من زجاجة قدمها لي، فازداد جسدي ثقلًا. تراخيت في جلستي. وانهمك هو في استجواب النجوم عن مسارنا. ثم أمسك المجدافين، وتولى القيادة.

«إننا نبتعد شمالا، ربما نكون خرجنا عن نطاق تواجد الوحش»

«ألم تر الوحش من قبل؟»

سألته متأملا ما بان في الظلام من ملامحه.

«من رآه هم فقط أولئك الذين لم يعودوا»

«لكنك مؤمن بوجوده؟»

أخرج زجاجته، عبأ روحه بالسائل نافذ الرائحة.

«أنا مؤمن بوجوده أكثر من سواي، وحتى تلك المأفونة التي تدعوهم لعبادته، لا تحمل في قلبها ذرة من إيماني به»

«المعضلة ليست في وجوده. أنا كذلك مؤمن بوجوده. نحن فقط مختلفون حول كنهه»

«ما أدركه يقينًا، أن له صوتًا جميلًا»

أثار اهتمامي.

«أنت سمعته إذن؟ رغم أنك لم تره؟!»

ترك المجدافين، واسترخى في جلسته. فلم أفهم إن كان يأسًا، أم أننا بلغنا حد الأمان الذي ينشده. حاور زجاجته، قاطعًا الرشفات بفواصل من حديث.

«بينما هم جميعًا يخافونه، كنت أنا أشتاق للقياه. بينما هم جميعًا يهربون منه. كنت أنا أخوض البحر بحثًا عنه. تركت الصيد، وانعزلت عن الجميع. نبذوني، وعاملوني كمجنون، لأنني كنت في الليالي أضرب الماء بمجدافي وحيدًا، مطاردًا صوته أو شائعات ظهوره»

«لماذا؟»

«لأنه أمر لا يحدث كل يوم. وفي عمري هذا، وبعد أن خبرت البحر بأسراره، أو هذا ما ظننته. كيف لا يحمل لي ظهورًا كهذا فتنة؟ كيف يمكن أن يمضي عمري، وأموت دون أن أراه؟»

«ألهذا تحمل مسدسًا؟»

لم يجبني بالسرعة المعتادة. مد يده نحوي بزجاجته للمرة الأولى، ولا أعرف لماذا ظن الآن أني قد أتجاوب. هززت رأسي نفيًا. أراح رأسه على حافة القارب.

«بل أحمله لنفسي. عساني حين أصل إلى منتهى الأمل، أفعلها. أرشف من فوهته رشفة لا أظمأ بعدها أبدًا»

طلبت المدد من كلماته، فلم يسعفني. طالع بصره النجوم، وهمد مستكينًا. ذاب قدر كبير من الجليد بيننا. ما عدت أخافه، وإن بقي صدى رصاصته في صدر الشاب، يتردد في أذني كلما نظرت إليه. قلت متعلقًا بأمل ما:

«ربما ذلك الشاب الذي سكنته رصاصتك لم يمت»

قال بغير حماس، وبصوت يأكل منه النوم:

«ربما»

***

مر اليوم التالي كسابقه. اصطاد رضا لنا الطعام، وكاشف الأعماق لم يزل لا يكشف عن شيء. عند الظهيرة بدا لنا الشاطئ من بعيد. رضا قال أنها مسافة مناسبة. علينا أن نسير قليلا بمحاذاة هذا الشاطئ. أكلنا السمك. عند نقطة معينة قال لي أن أول مركب صيد أغرقها الوحش كانت هنا. كاشف الأعماق -حتى الآن- لا يراه. وفي المساء لا نسمع له صوتًا. لماذا لم يعد يغني كما يدعون؟ الدقائق طويلة، والملل وتعب البدن المطوي فوق الأرض الخشبية، يقتلاني. نصف الماء نفد، ولم تنفد زجاجاته.

«هل أنت متزوج؟»

يسألني بلسان نصف ثقيل.

«كنت»

«ماتت؟»

«انفصلنا»

«لماذا؟»

الملل الساكن حولنا يعوقني عن رفض فضوله. فكيف للوقت أن يمر بغير حديث؟

«ما كانت تحب البحر. ولا الليل. ولا الموسيقا الناعمة. لا شيء بيننا يتشابه. لا يوحدنا سوى أنفاس وزفرات تخرج ذات الهواء الساخن في ذات الفراغ الضيق، فتخنقنا»

«لماذا تزوجتها إذن؟»

«لكلمات جافة محددة، الأهل.. العرف.. الذرية.. نصف الدين.. المصير المحتوم»

اكتفيت بتلك الكلمات، فلم أخض معه فيما سبق الزيجة، واحتفظت بخبر فاطمتي في صدري آمنا كما اعتدت.

قام رضا بصعوبة. استوى على ساقين مرتعشتين، على سطح متذبذب، فوق ماء رجراج. تمطى، كمارد جن يخرج من مصباحه. لوى ظهره، حتى أطلقت فقراته طقطقاتها. تأوه بين تألم واستمتاع.

«ألك منها ذرية إذن؟»

ابتسمت بلا سبب.

«بل داويت حماقتي قبل أن تنجب المزيد من الحماقات الصغيرة»

كان مثابرًا في الفضول.

«كانت زيجة سريعة إذن؟»

قلتها بسرعة، كتسديدة مترددة.

«بل أنا عقيم»

ضحك.

«الأمر إذن ليس عن الاختلافات والجفاف كما تدعي. قل إنها تركتك لأنك لا تنجب»

لم تعجبني طريقته.

«أنا قلت الحقيقة. أنا من تركها»

مارس المزيد والمزيد من الضحك.

«أنت تقول هذا فقط لتداري خيبتك! بعض التحايل يا صديقي»

ارتجفت أطرافي. اختنق الحلق بسخونة الكلمات. كدت أبصق في وجهه ما تيسر منها. لولا أن ساقيه انهارتا تحته فجأة. وسقط على وجهه عند قدمي. ولم يصدر عنه صوت حتى الصباح!

***

البدن تيبس وجمدت مفاصله. الحركة صارت مزيجًا من جهد وألم. عند الظهيرة الحارة، كان علي أن أقتنص سخونة سطح الماء. سبحت عاريًا كطفل رضيع. سعيد بعودة تيارات الكهرباء لأعصابي وعضلاتي. أتمدد وأنثني كما أشاء. أغتسل من قذارة أيام مضت. كانت دقائق من نعيم الجنات. رجوت رضا أن يفعل المثل لكنه أبى. منعني الحرج أن أخبره كم يحتاج جسده لطهارة الماء، كما تخبرني رائحته. تخلصت من ثقل مثانتي، مستترًا بكتمان البحر. رضا يفعلها أمام عيني، منتصب البدن فوق سطح القارب بلا حياء، مواجهًا البحر. يعتذر بعدها بطول العمر، وضعف القدرة على حبس ما لا يجب حبسه.

تمددت فوق القارب عند العصر، مستمتعًا برطوبة البدن، وملابسي الجديدة النظيفة. أراقب رضا يدلي سنارته ونظراته وآماله في الماء. كان محبطًا، يسب اللاشيء.

«أين ذهب السمك؟!»

ألقيت نظرة على شاشة جهازي، والذي صرت أنسى مراقبته لأوقات تطول تدريجيًا.

«لا أسماك هنا، فلا تجهد نفسك»

«أين ذهبت إذن؟!»

كان يصرخ غضبًا.

«لا أعرف. لكنها ليست هنا»

ألقى قصبة الصيد بعنف إلى قاع القارب وكأنما يعاقبها. محاولات العجوز اليائس تكررت على فترات. شاشة الجهاز أصبحت وسيلتنا للبحث عما نقتات به بدلا من البحث عن وحشنا. عند بوادر الليل قلت له:

«دعنا نعد إلى الشاطئ. يكفينا هذا. دعنا نرتح ونحضر مؤونة كافية»

«أتريدنا أن نعود إليهم بعد ما فعلناه؟»

أغاظتني كلماته. وأغاظتني -لأضعاف- براءة الصدق في نبراته.

«تقصد ما فعلته أنت. وعلى كل حال نحن نسير بمحاذاة الشاطئ منذ ساعات. أظننا ابتعدنا كثيرًا عن قريتك»

أخرج زجاجته. يده ترتعش بحملها. السائل ينهال على صدره، في خيوط عشوائية.

«أنا لن أعود أبدًا إلى الشاطئ»

«ماذا تعني بـ(أبدًا)؟! نحن هنا في مهمة. مهما طالت ستنتهي، وسنعود»

«كلا. لقد رافقتك لأنني وثقت أنها مهمة لا عودة منها»

كان صوته عاليًا. رائحته لا تطاق. لعابه يتطاير مع الكلمات. لوحة للتقزز البكر!

«أنا لا أفهمك، ولا أسعى لأن أفهمك. ولكن حتى مهمتنا قد فشلت. لقد قضينا في البحر ليلتين، ولم يظهر وحشكم هذا. يجب أن نعود»

أمسك المجدافين.

«لتعد وحدك إذن. سأقودك لأقرب موضع، ولتكمل سباحة»

انكسر أي رابط للسلام بيننا لحظتها. هو مجنون، وأنا أعي هذا الآن. أعي أن البقاء معه ما

عاد يحمل أي أمان. وافقت على عرضه من باب الخلاص. سأعود إلى الشاطئ. أحمل أشيائي وأبحث عن طريقي للمدينة. هناك سأبحث عن الشرطة وأبلغهم بما صار. سأحكي حكاية الأيام الماضية كما جرت تفاصيلها. لن أخفي شيئًا، أو أخشى شيئًا. سأعطيهم دفتر فاطمة، فربما وجدوا فيه ما يعينهم على اكتشاف حقيقة ما جرى لها. سأكتب تقريري موضحًا أن لا شيء مريب في البحر. ربما أتهم التغيرات الجيولوجية المريبة التي تضرب العالم الآن. ربما أتهم الناس الجاهلين البدائيين. لكنني سأدون تلك العبارة الجافة: «لم يعثر على دليل على وجود نشاط حيواني مريب في المنطقة». أو ربما أبتكر جملة أقل ركاكة وأكثر شاعرية وعمقًا، وربما أختمها بتلك العبارة القوية: «برغم جهدنا البحثي المضني»!

العجوز كان يسب ويسعل، وكنت أتأمل ارتباك ملامحه. نظره يعلو للنجوم، ويهبط للأفق، ثم يعود ليسعل، وذراعاه يمتصان كامل طاقته في ضربات عصبية للمجدافين.

«ما الأمر؟»

سألته حين توجست.

«أنا لا أجد الأرض!»

جادلته في الأمر طويلا. تملؤه الثقة في قراءته الصحيحة للنجوم، وفي ثبات ضربات مجدافيه. يقينه أننا نسير نحو الجنوب لوقت كاف لبلوغ الشاطئ. لكن لا شاطئ هناك. وأنا لا أثق لحظة في عقله المشبع بالكحول. لا أعرف كيف أثبت أمام عينيه جنونه. وإن افترضت فيه العقل للحظة، فإني سأفترض أنه يخدعني ليبقيني معه في البحر. عرضت عليه أن آخذ مكانه على المجدافين. كان منهارًا. عصبيًا. كيف يمكن لهذا أن يكون زيفًا؟! هو لا يخادع إذن. هذا رجل مؤمن بالفعل أن الأرض ضاعت.

شكوكي الصامتة لن تنكر حقيقة أن النهار باغتنا ونحن لم نزل نبحث عن الأرض. ولن تنكر حقيقة البطن التي خوت، والماء الذي شح. رضا كان مستسلما في قعر القارب. متراخيا في تمدده. فوق بطنه تسكن زجاجته الفارغة.

«السمك اختفى أولا. ثم الأرض. إنها نهاية العالم كما يقولون»

«لو كانت نهاية العالم لكنا انتهينا بدورنا»

«أهو طبيعي إذن أن تذوب الأرض في الماء؟»

ضحك، وكنت مشمئزًا منه.

«الأرض موجودة يا عم رضا. فقط أنت لم تبحث عنها كما ينبغي»

أصدر من حلقه صوتًا للاستهجان.

«انت خبير في الإبحار إذن؟»

لم أجاوب استفزازه. بقيت أوزع النظرات بين الأفق الجنوبي، وبين شاشة الجهاز. ما عدت أبحث عن الحوت، وإنما أبحث عن أي شذوذ جيولوجي في الأعماق ينبئوني بما حدث لليابسة. الأعصاب ما كانت بحاجة للمزيد من الحرائق، فما احتملت صوته الاجش، يغني برتابة:

«انا عند النهاية أنتظر

سيأتي ليأخذني من يدي

نحو البحر وكنوزه...»

صرخت فيه:

«توقف. لا أريد سماع تلك الأغنية العجيبة»

«إنها أغنيته»

نجح في جذب انتباهي.

«أغنية من؟!»

«أغنية الوحش»

قالها ثم استوى -بعد جهد- جالسًا. دار بعينيه دورة حول الأفق. سعل، وبصق في البحر.

«لم أره قط. لكنني سمعته كثيرًا. صوته عالٍ، قوي، قريب من أذني، من رأسي. أنظر حولي. لا شيء. أين أنت؟ كأنه يسخر مني. صوت في قلب الظلام، ولا شيء سواه. إن كان قريبًا مني هكذا، فلماذا لا يظهر نفسه؟ لماذا لا يأخذني، أو يأكلني، أو يقتلني، كما فعل بهم جميعًا؟ لماذا يتركني كل ليلة أعود إلى البر حانقًا، يائسًا. أسهر في قاربي. أرشف الحزن مع الخمر؟»

بدا لي لحظتها بائسًا. مستحق للشفقة.

«ما حكايتك؟»

ليحل فضولي ببدني كغذاء بديل للطعام. ولافتح لأذني مساحات لتلقي الحكايات. لأنصت إلى حكايته. كم هو مشتاق للحكي. وكم أنا يائس، فأقرر في لحظة كتلك أن أسمعه.

حكاية رضا الصياد..

تركتك ملقى على أرض الخوص ليوم غارقًا في دمك يا رضا. رائحة عفونة السمك النفاذة أيقظتك. استخدمت الزحف والاتكاء على الكراكيب المتهالكة، حتى قمت في اليوم الثاني. رأسك يؤلمك، وذراعك متدلي بجوارك، رافضا الانصياع لأوامر الحركة، فارضًا عليك حصارًا من ألم لا يطاق. فعلتها البنت الملعونة. لكنك كنت تعرف أن هذا سيحدث في يوم ما. برغم كل شيء، كنت ترى الغدر في عينيها فتنكره. خدعت نفسك بتدابير احتراس تدري أنها لن تفيد. اشتريت ذلك المسدس من الشاويش، وأنت تعلم أنك عاجز على تسديده نحو جسد شهد الطري، حتى وإن سددت نحوك سكينها الزفر.

خرجت في الليل من الخوص تسعى نحو دارك. تختبئ في زوايا العتمة. الدار كانت خاوية. جلست قليلا تريح جسدك الفاقد للدماء. تعمل عقلك في مسببات هذا الخواء. أيكون الولد عبد الحميد بعد في عمله؟ السوق ينهي عمله قبيل الغروب يا رضا، فكف عن خداع نفسك. وإن كان عبد الحميد في عمله، فكيف يفسر هذا غياب وداد وإبراهيم؟ وإن فسرت غيابهما كما شاء لك الزيف، فكيف تفسر اختفاء ملابسهم وأغراضهم؟ لقد فعلتها شهد يا رضا، فلا تكابر. أخذت العيال وغابت. تنهض إلى دولابك، تطمئن على وجود المسدس في مخبئه. بماذا نفعك في هذا المخبأ؟ ولماذا اشتريته أصلا يا رضا؟ أحقًا لأنك كنت تخشى شهد؟ أم أنك تخشى شيئًا لم تدر بعد ما هو؟ شين يسكن أعماقك يا رضا.

قاومت رعشة جسدك، وجاذبية مضاعفة للأرض، حتى بلغت المستشفى. عالجوا جرح ذراعك وبطنك. منحوك الكثير من الأدوية. السكين الذي شق ذراعك، وطعن بطنك بشكل سطحي، ملوث، وقد يشكل خطورة. أخبرتهم أنه نفسه السكين الذي تستخدمه شهد في كحت القشر عن الأسماك، وفتح بطنها. أحضروا لك أمين الشرطة. جاء من النقطة يتثاءب في ملل. منحته سيجارة وأخبرته أن شهد استدرجتك إلى عشتها الخوص بحجة مناقشة بعض الأمور المتعلقة بميراثها عن شقيقتها، زوجتك الراحلة، ثم حاولت قتلك، واختطفت أبناءك الثلاثة وهربت. منحتهم عنوانها السابق في المدينة، وعنوان طليقها، واتهمته باحتمال مشاركته لها في الجريمة. أنت تعلم أن الرجل لا دخل له في شيء، كما تعلم أنك كاذب. والأهم أنك تعلم أن الشرطة لن تجدها. وإن وجدوها فسيجدون عندها الحقيقة. فهل أنت مستعد يا رضا لمواجهة الحقيقة مقابل عودة شهد؟ هل يؤلمك أصلا غياب أبنائك كما يؤلمك غياب البنت الجميلة؟

شهد كانت طفلة ترقص فوق شوار شقيقتها المحمل على عربات الكارو. هذه هي ذكرياتك عنها قديمًا. الشقيقة الطفلة لزوجتك. شاهدتها بعدها عروسة تزف إلى عريسها. أبصرتها

سريعًا، فوجدتها كذلك طفلة، لم تزل تقطع الخطوات نحو نضجها الأنثوي. لم تحرك بداخلك شيء سوى بعد سنوات. رحل عنها الأب والأم، وتفرق الأشقاء الذكور كل في بلد وفي حال. وزوجتك ترجتك أن تلعب لشهد دور الكبير وتطلقها من زوجها، بعد أن استحالت العشرة. لماذا قبلت يا رضا؟ أهو القدر؟ منذ متى تهمك الزوجة أو شجونها أو أزمات الأبناء حتى، لكي تهتم بمشكلة لشقيقة زوجتك التي لا تعرفها سوى اسمًا؟ حتى زوجتك عندما طالبتك بهذا انتظرت منك سبة أو لطمة، لكنك وافقت. ربما كان خمر تلك الليلة رديئًا. أو ربما زيارتك لعشة بدرية العاهرة، أتت بأكثر مما انتظرته من متعة وصفاء بال، فوافقت. لم تكن يومًا مخلصًا يا رضا، فلا تدعِ العكس. لم تكن تحب الزوجة ولا الأبناء. لطالما اعتبرتهم قيدًا حديديًا. أنت ابن البحر يا رضا. ابن الحرية والبراح. ابن التقلب والجنون. لو تُركت لحالك لما تزوجت، ولا قيدت رقبتك بالأغلال. لكنها الأم، بكاؤها صار عويلا، وحزنها صار جنونًا، والسنين تجري يا رضا وأنت قاربت الخمسين وليس لك سوى البحر والخمر وفروج العاهرات القذرة. لحظة ضعف فوق رأس الأم المريضة جعلتك تفعلها لترضيها. لكن الأم راحت رغم هذا راحت راضية عنك، وتركت لك قيدًا من امرأة وثلاثة أبناء. أنت لم تكن يومًا مخلصًا، ولم تكن يومًا زوجًا، ولم تكن يومًا أبًا. لكن الأمر فاق الجنون يا رضا. شقيقة زوجتك؟

maktabbah.blogspot.com

منذ أن خرجت عليكما وارتمت باكية في حضن شقيقتها، منذ تلك النظرة لجسدها الملفوف بلا اكتراث في جلباب صيفي خفيف، اشتهيتها يا رضا. شهد هنا ليس اسمًا، وإنما صفة. أردت أن تعب يا رضا من هذا الشهد. لم تشرب خمرك منذ نهار كامل، لتحتفظ بعقلك راجحًا لتلك الجلسة، لكن شهد أطارت العقل. ليس بكاءها ما دفعك للإصرار على الطلاق. ليست شكواها من بخل الزوج، وسوء معاملته لها، البالغة حد التجويع، ومطالبته لها بالعمل في خدمة البيوت بينما هو ينفق ما تكسبه في جلسات المقهى. وإنما لغرض في نفسك لا تجرؤ أن تكذبه الآن. طلقت شهد، وأقنعتها بحنان مصطنع أن تذهب معكما للقرية القريبة، فلا حياة لها هنا في هذه البلد بلا زوج أو أهل. فتبعتكما حاملة صرتها. عاشت في داركما وقتًا، قبل أن ترجوك أن توفر لها سكنًا مستقلا، فالدار تضيق بكم، وهذا لا يريحها. شقيقتها رفضت، لكنك وافقت لغرض يحرق أحشاءك. بنيت لها الخوص على حد البحر مع السوق، ووفرت لها عملا في تنظيف الأسماك المباعة لزبائنك المهمين. والآن، ماذا حدث يا رضا؟ ماذا حدث حقًا؟ هل تجاوبت لرغبتك؟ هل أغوتك يا رضا؟ هل أخذتها غصبًا؟ ماذا حدث يا رضا؟ حاول أن تصفي عقلك من الخمر عساك تتذكر. الغريب أنك حتى لا تتذكر مذاق الشهد يا رضا، فقد كنت حاضرًا غائبًا. لهذا أردت المزيد، والمزيد. الخاطبون الذي طرقوا بابك لم يكونوا معيوبين. ليس منهم لصًا، أو صيادًا فاشلا بلا مستقبل، أو ابن أمه ناقص الرجولة. الحقيقة أنها حجبًا سقتها كلها لتبقي شهد لأجلك أنت، فلماذا وافقت هي أن تبقي نفسها

لك؟ واجه نفسك بالحقيقة يا رضا. لقد كنت تملكها، تطعمها وتسقيها وتأويها. هي لا شيء بدونك. لقد كانت مضطرة لك يا رضا. ربما ما كانت تطيقك. ربما كانت رائحتك في أنفها أقوى من رائحة زفارة السمك الضاربة في الخوص. لن تعرف يا رضا. أنت لا تتذكر حتى طعم الشهد، فكيف تتذكر نظراتها لك، أو نبرة القهر في تأوهاتها تحتك. لكنك تذكر جيدًا صيحتها فيك حين هممت بها ذات ليل..

«دورتي تأخرت لشهرين»

كابوس ثقيل كانت كلماتها. في القرية كل الناس يعرفون كل الناس. لا مجال هنا لمحاولة فهم حقيقة ذلك العَرَض المخيف. لا يمكن هنا أن تدخل المطلقة الشابة إلى الوحدة الصحية طالبة إجراء تحليل للحمل، وإلا سبقتها الفضيحة في الخروج. حتى الصيدلي العجوز يعرف رضا وزوجته، وحكاية الضيفة الجميلة. كان عليك أن تسافر يا رضا إلى المدينة البعيدة. اشتريت التحليل المنزلي من أول صيدلية قابلتك، ورجعت به لها لتلاقيك بالنبأ الأسود. الشكوك حقيقة يا رضا. والخوف حاضر في عقبك النجس. تبكي شهد وترجوك أن تساعدها. يجب أن يموت ابن الحرام. لكنك تشرب خمرك وتخبرها أنك ستسترها وتتزوجها. بصقت في وجهك لحظتها. هاجمتك بأظافرها، كيف تتزوجها أيها السكير؟ وبأي عقد وهي شقيقة زوجتك؟ خرجت من الخوص غاضبًا. نمت في فراشك غاضبًا. لكنك تيقظت تعرف حلا للمعضلة. بعد يومين كنت تخبر زوجتك أن القارب لن يعمل به اليوم سواك. مساعدك رحل لشأن يخصه، ولا أمل لك سوى في مساعدتها لك. تذكرها بأيام خلت كنتما تخرجان للبحر معا، فتغويها بحلاوة ما فات. تركتما وداد وإبراهيم عند خالتهما، وعبد الحميد الطفل مطحون الجسد في عمله، وخرجتما بالقارب. عند العصر عدت سابحًا، وحيدًا، باكيًا. القارب غرق، والزوجة لم تنج. نصب العزاء لثلاثة أيام. بكيت يا رضا لثلاثة أيام. وحدك كنت تعرف حقيقة ما حدث. حقيقة لم تصارح بها أحدًا. أيام العزاء مرت، وما عاد من حرج أن تحدث شهد عن القدر الذي يعينكما على الاقتران (وتجرؤ أن تسمي جريمتك قدرًا). الأبناء بحاجة لرعاية، والرجل بحاجة لخدمة. القرية لن تتعجب إن اختار الرجل شقيقة الزوجة الراحلة. بل أن الأمر بدا للجميع كمصير محتوم لوجود شهد قرب بيتك يا رضا. فمن غيرها يربي أبناء الراحلة. لكن شهد لم تريحك بكلمة قبول. كانت مترددة، غاضبة. شهد تفهم ما حدث. هي ليست طفلة. تدرك أن المصادفات لا تحدث بهذا الكرم سوى في مسلسلات رمضان. صرت ترى الكره في عينيها، وأنت تروح وتجيء عليها تطلب منها الرضا. في يوم رمت في وجهك قماشة ملوثة بدم ثخين كقطع الكبد. وصرخت في وجهك أن هذا هو ابنك، وما عاد لك في جسدها من شأن. خشيت الجنون في عينيها في هذا اليوم، فاشتريت مسدسك. لكنك كنت مغفلًا فتركت السلاح ينام باردًا في دولاب ملابسك. حتى صارت الواقعة.

أهل القرية لم يتعاطفوا معك كما أملت. يهزون الرؤوس. يمصمصون الشفاه. لكنهم لا يصدقونك يا رضا. هم يشتبهون. أو ربما يعرفون. من يصدقك يا رضا؟ شهد المعدمة تأخذ أبناءك وتهرب بهم للمجهول؟ وما الغرض؟ الناس في مجالسهم يتباحثون أمرك. يجتهدون. يتخيلون. أوقات كثيرة يقتربون من رسم الحقيقة. هكذا صرت تخشاهم. تمقتهم. وهكذا صرت تحمل مسدسك في كل مكان. ترافق زجاجتك. تبات معها ليلك في الدار، وتصاحبك في جولات الصيد الفاشلة بقاربك الجديد. انعزلت عن الناس، وانعزلوا عنك. تنتظر معجزة تعيد لك شهد، أو خبرًا عنها. حتى ظهر في بحركم الوحش، وارتجت الأرض تحت أقدامكم. نسيك الناس. وتمنيت أن يأتي الوحش من أجلك.

***

حل علينا ليل بلا نجوم. السمك ثم الأرض، والآن النجوم. ليصبح ضياعنا تامًا في فراغ أسود، لا يقطعه سوى لمحات خاطفة من زبد ماء يتراقص حول القارب. تركنا جسدينا ينهارا يأسًا في قاع القارب. أشعلنا قبسًا من نار، فقط لنتمكن من تبين وجودنا في حدود القارب الراقصة. أعرف أنها النهاية، ولا يضايقني سوى غموضها. أتعجب أن يقين الموت لا يسبقه خوفًا، وإنما الخوف يسعى بين يدي المجهول، فأرتجف لأنني فقط لا أفهم لماذا ولا كيف سأموت؟ هل هو حوت؟ وحش من عالم بعيد؟ رسول النهاية؟ ماذا يحدث؟ ولماذا يحدث؟ وكيف سيحدث؟ إن مت دون أن أجد الإجابات، فهذا هو الموت المخيف حقًا!

«وهو عند النهاية ينتظر

سيأتي ليسحبه من عنقه...»

كانت محاولتي الأولى للغناء. صوتي كان واهنًا، مشتتًا، لكنني كنت مستمتعًا بالحالة. فقط لو أني أحفظ الكلمات. سكت عن الغناء، عندما أعجزتني الذاكرة الخاوية. سألت رضا:

«إلى أين سيسحبه؟»

ابتسم رضا برغم شرود عقله، وأسعفني..

«نحو البحر وعذابه»

هززت رأسي، وأعدت الغناء..

«وهو عند النهاية ينتظر

سيأتي ليسحبه من عنقه

٢٧٠٦٠٦٥٦٩٨

نحو البحر وعذابه»

صوت الهمهمة المريب هذا لم يكن صادر عن همهمات استحسان من المستمع الوحيد. رفعت رأسي نحو رضا، كان يبكي، ينشج كطفل ضائع. اعتدلت جالسا. لم يعد في قلبي ذرة تعاطف نحوه. هذا السفاح، قاتل زوجته. لكن بكاءه المفاجئ هذا كان مريبا ومثيرا للفضول أكثر من اختفاء الأرض والنجوم.

«لماذا تبكي؟»

«لقد نفد الخمر.. وصرت أرى أشياء لا أحب أن أراها»

«ماذا ترى؟»

لم يجبني سوى بنشيج يخترق جدار العويل. ثم يتصاعد الأداء فيلطم خديه بكفيه حتى يحمرا. ويشق ملابسه بيديه وهو يصرخ. فوجدتني - دون إدراك حقيقي - أصفق له مستحسنا. نهض غاضبا، حمل المجداف في يديه. رقعه فوق رأسي مهددا بتهشيمها بنصف ضربة.

«أنت لم تفهم.. أنت لا تفهم.. أتعرف؟ أنت كذلك لن تفهم»

نهضت متحفزا، عازما مواجهته. لكن قبل أن أجبه بلفني صوت الغناء..

«أنا عند النهاية أنتظر

سيأتي ليأخذني من يدي

نحو البحر وكنوزه....»

الغريب أني استغرقت وقتا قبل أن أدرك أني لست أنا من يغني. ولأن فم رضا مفتوح عن دهشة ورهبة، وجسده منتصب بلا حراك. فكان من الطبيعي أن أستنتج أنه كذلك ليس مصدر الغناء.

«إنه هو»

قالها رضا فانتبهت. استعدت مداركي فجأة، خارجا من الجب السحيق ليأسي وشفقتي على ذاتي. الصوت قادم من هناك. من نقطة مظلمة، بجوار نقطة مظلمة، داخل نقطة مظلمة، تسكن في قلب الظلام الرابض فوق الظلام حولنا! الصوت العميق الخشن كان يقترب، مع كل مقطع لأغنيته، يعلو صوته..

«وهي عند النهاية تنتظر

سيأتي ليحملها من خصرها

نحو البحر وغدره....»

أتلفت حولي..

«أين هو؟»

«ربما لن يكشف عن نفسه كالمعتاد.. لقد مررت بهذا كثيرًا»

اهتز القارب فجأة، الماء يفور تحتنا، وكأنما يغلي.

«أهذا من ضمن طقوسه المعتادة؟»

جلس رضا متشبثًا بجانبي القارب مرعوب القسمات.

«هذا لم يحدث معي من قبل»

تصاعد الاهتزاز والفوران، حتى شعرنا أن القارب سينفجر، وتتمزق أوصالنا كلعبة أطفال. لكن الماء هدأ بعد وقت، وساد صمت لا يجرحه سوى لهاثنا المرتبك.

«هل ذهب؟»

«ربما»

نهضت واقفًا من جديد، أحاول خرق الحجاب الأسود بنظري. لا شيء سوى بقعة مقلقة أكثر سوادًا وأكثر كثافة من ظلام الليل المعتاد. وكأنما حائط من الظلمة وضع أمامنا. قبل أن تفتح فيه فجأة طاقة نور. لم يكن نورًا كثيفًا، كان لمعانًا رقيقًا، وبياض له شفافية صافية، تترك مجالا لمساحة من الانعكاسات، أرى عليها انعكاس ملامحي، ومن خلفي رضا وجسده المرتجف. حقيقة أنها لم تكن طاقة نور كما ظننت في البدء، وإنما كانت عينه! وهذا يعني أن جدار الظلمة، كان جانبًا صغيرًا من رأسه!

جلست بجوار رضا أرتجف مثله. ولولا قدر ضئيل من خجل، لألقيت جسدي في حدود جسده بحثًا عن شذرات أمن. لقد كنا نحدق في عين بحجم قاربنا نبتت من الظلام، أو تحديدًا من جبل أسود خرج من الماء، في لون الظلام. رضا لم يعقه الخوف بعد كل هذا عن اتخاذ رد الفعل الأسرع، فخر ساجدًا أمام البدن العظيم الطافي أمامنا.

«انهض.. فليس الخنوع ما ينجيك من المطاف المحتوم»

رفع رضا رأسه..

«إنما أنا أرجو الغفران»

«وإنما أنا مجرد أداة.. لا أملك ما تطلبه.. ولا أملك حتى إيصال الرجاء»

عندها حان دوري..

«وما أنت إذن؟»

«أنا كما وصفتني أنت.. مجرد حوت مسكين»

خررت على ركبتي خاشعًا..

«هي النهاية إذن كما يقولون؟»

«لا علم لي بالنهاية.. أنا حارس على بوابة البدايات.. سأحمل في أحشائي ميلادًا جديدًا للأرض»

لم أصدق أفكاري، فنطقتها، لتكتسب على وقع كلماتي واقعيتها..

«أنت هنا إذن لتنقذنا من النهاية»

«ليس الجميع.. فقط المختارون»

برجاء قلت:

«وهل أنا منهم؟»

«بل أنتما منهم»

دهشتي غلبت فرحي بالنجاة، حتى أنها تمخضت عن سخط، بدا في كلماتي..

«هل ستنجي هذا القاتل الزاني أيضًا؟»

«ليس بحكمتك.. ولا بحكمتي»

بكى رضا فرحًا..

«الشكر لك.. الشكر لك»

فأبى قلبي أن يرضى..

«ولكن كيف؟ ولماذا؟»

قال الحوت:

«دعوني قبل أن أدخلكما، أطهركما بحكاية»

***

حكاية الموسيقي العجوز والواعظ..

تقطع طرقات البلدة في الليالي الصيفية، يداك معقودتان وراء ظهرك المشدود على استقامة وقوة، وكأنما جدار صخري هو. ملابسك دائمًا نظيفة ومهندمة. شعرك مصفف ومزيت بعناية، تحت غطاء رأس منسق قاتم اللون. في هذه الليالي تكون الشوارع خالية، والأبواب والنوافذ مغلقة على غطيط أجساد ساكنة لناس اعتادوا النوم مبكرًا، لإدراك السعي البكر وراء الأرزاق. تعرف أيها الواعظ أن احتمالية أن يراك بشر في جولاتك تلك ليست بالكبيرة، رغم هذا تحرص على أناقتك كما لا تفعل في أي وقت أو مناسبة، فأنت في هذه اللحظات تدرك أنك تؤدي أكبر مهمة باسم الرب. فإن لم يرك بشر، فأنت واثق أن الخالق ينظر إليك الآن بعين الرضا. تشعر بمسئولية عن كل أهل البلدة، كلهم أولادك، خراف ضالة وأنت راعيها بالوكالة. ولهذا تتحرك في سكون الليل لتطمئن أن الأبواب مغلقة، والناس ملفوفون بأحلامهم السعيدة. ولتتأكد أن لا معصية ترتكب في جنح الليل في بلدة أنت فيها حارس كلمة الإله.

أتممت الجولة، قطعت الشوارع والطرقات القليلة، دون أن تجد ما يسوء، سوى بعض الأضواء المتسللة من فتحات الجدران الضئيلة، تحمل أنفاس أناس ساهرين في هذا الليل. تطرق عليهم الأبواب. تلقي التحية، وتتبادل بعض العبارات والنظرات، فقط لتتأكد أن سهرهم لا يدور حول ما لا يرضي الله. ولما تطمئن، تغادر مكملا مسارات جولتك. حتى تنتهي أيها الواعظ خارج البلدة. برغم حرصك على تغيير مساراتك كل ليلة، لكنك دائمًا ما تنهي الجولة في ذات النقطة. أمام هذا البيت الخشبي خارج الحدود. منذ أن عمر البيت بساكنه، وأنت تنتظر منه شرًا. تعرف أن في هذا البيت شيطانًا قد يكبر ويمد أذرعته ليحتوي بلدتك. لكن حتى الآن لم تستطع أن تثبت عليه شيئًا، أو تضبطه بجرم مشهود، أو حتى مسموع. تقترب من البيت، نوافذه مفتوحة بعكس باقي الدور، أضواءه أكثر سطوعًا. ومع اقترابك تتضح أكثر الأصوات الطائرة على أجنحة الوقاحة من النوافذ، وتتيقن أن الليلة هي ليلتك الموعودة.

maktabbah.blogspot.com

وأنت أيها العجوز، منذ أن حملت أغراضك الشحيحة، وآلتك الموسيقية، وحزنك على من راحوا، وعدت إلى بلدتك، وإلى بيت صباك الخشبي، وأنت تدرك أن البلدة لم تعد كما كانت. النبع لا يتدفق كما تتذكره في صباك. والنهر لا يجري بصفاء كما تتذكره في صباك. أصوات الطيور، وحفيف الأشجار، وضحكات الناس، لا تجلجل في فضاء البلدة كما تتذكرها في صباك. وحتى الشمس ما عادت دافئة كما تتذكرها في صباك. هي ليست البلدة التي غادرتها منذ زمن إلى مدن بعيدة تملأ منها فراغات روحك الشغوفة للموسيقى. لم تسعدك العودة للبلدة، لكنك لا تعرف مكانًا سواها تحب أن تقضي فيه آخر أيامك، وأن يحضن ترابه جسدك.

أعدت إعمار البيت بوحدتك، وبقايا بهجة الحياة بين ضلوعك. خبأت مدخرات العمر تحت ألواح الأرضية، لتبقيك مكتفيًا آمنًا لما بقي لك من أعوام أو شهور. كنت تخشى اللصوص كما تخشى وهنك وقلة حيلتك. لكن أهالي البلدة طيبون أيها العجوز، لا يعرفون سوى عمل وطعام وشراب ونوم هادئ بلا كوابيس. نظرات فضولهم كانت تتمدد نحو بيتك، نحو آلتك الموسيقية. كنت لتسعد بهذا لولا تمدد ظل الواعظ الداكن ليحيطك في دائرة معزولة عن دائرته التي تحيط البلدة وناسها.

وكنت تخشاه أيها الواعظ. تخشى قيمه وأفكاره وخطاياه المستوردة من المدن البعيدة الماجنة. تخشى آلته الموسيقية التي تقبع في بيته كصندوق ديناميت على شفا بحيرة من زيت معد للاشتعال. تخشى الأعين الفضولية والعقول المفعمة بالأسئلة، ولهذا حدثتهم في موعظتك الأخيرة عن الموسيقى وعلاقتها بالشيطان وأثرها المدمر على الروح. «**الله خلقكم يا أحبائه للعمل وإعمار الأرض، والشيطان خلق لكم كل ما يصرفكم عن هدفكم الأسمى، ويملأ أرواحكم بالتراخي والكسل. وأهم أسلحة معركته هي الموسيقى**». بعد الموعظة صار بيت الموسيقي العجوز يشمل جولاتك الليلية. لكنك بعد لم تجد ما يدينه، سوى أنه رجل بلا عمل أو قيمة في الحياة، لا يخدم الله، ينام طيلة النهار ويصحو طيلة الليل. لكنها ليست بالقضية الهامة التي يمكن إثارتها ضده، فهو في النهاية مجرد عجوز واهن على حافة الدنيا، لا يتوقع منه أحد عملا، أو خدمة للرب سوى العبادة حتى لحظة انخطاف الروح. لكنك بقيت لا تأمن جانبه، حتى أتتك الليلة بما تمنيت.

عندما طرق في المساء بابك أيها العجوز تعجبت. غطيط الناس في البلدة يخلق مؤثرات صوت للحظة الغروب كل ليلة، ولا يتوقف حتى شروق الشمس التالي. ربما كنت لتصدق أن طارق بابك هو خروف ضال ولا تصدق أن يكون أحد أهل البلدة خرج من بيته في تلك الساعة. لكن عيناك لن تكذبا عليك بعد كل هذا العمر، كانا اثنين من شيوخ البلدة أمام بابك. يقاربانك في العمر، يطأطئان الرأس خجلا ويستأذنانك بالدخول. أحدهما في شبابه شاهد آلة مثل آلتك مع موسيقي جوال. أعوام مرت وحيوات بدأت وانتهت منذ أن استمع لصوت الآلة في ليلة خريف، بمقهى على ضفة نهر بعيد. الآن هو يتذكر تلك اللحظات ويرجو تكرارها. وهذا صديقه الذي لا يصدق تلك الحكايات، مشدود الأوصال بين كلمات صاحبه عن سحر الآلة، وكلمات الواعظ عن شيطانيتها. ترجياك أن تعزف لهما قليلا. ولم يكن لشيء في الكون أن يسعدك أكثر من طلب كهذا. حملت آلتك أمامهما وعزفت، وأنت بين شرود مع شيطان ألحانك، وبين استمتاع بارتجاف بدنيهما، ولمعة الشجن في أعينهما. حتى حط عليكم-بغير استئذان- ظل الواعظ الثقيل.

عندما اقتربت أيها الواعظ وأرسلت عبر النافذة المفتوحة عينيك، ارتدتا إليك برؤية اليقين، أعقبتها بصراخك يوقظ الناس والنجوم ويعيد الشمس إلى السماء في شروق مبكر، لتشهد مواجهتك مع الشيطان. أمرت الموسيقي العجوز بمغادرة البلد دون عقاب احتراما لسنه، لكنك رفضت أيها العجوز وتحديته على رؤوس الأشهاد ألا سلطان له عليك. وأنت تؤمن أيها الواعظ أن سلطانك يمتد على كل من يتقي الرب، فكانت هي تفرتك للنفاذ إلى عقول الناس، وإقناعها بكفر الموسيقي العجوز، فالناس هم سيفك ودرعك، هم القادرون على حمل العجوز وبيته وأرضه على أذرع الغضب وإلقائهم خارج البلدة. لكن عقول الناس لم تزل متيبسة، الأصوات تسري أيها الواعظ بعيدًا عن أذنيك بهمس عن حقيقة الموسيقا، والعقول تتأرجح بينكما بغير استقرار. ولهذا تتجمد الأجساد وتتباطأ دون طاعتك. وأنت أيها الموسيقي تطمئن لتزايد مستمعيك في كل ليلة. برغم مطاردة ظل الواعظ لهم، وحصاره لبيتك، لكن الناس لم يتوقفوا عن الحضور. والواعظ لم يتوقف عن الصراخ والتهديد بسخط الإله.

البلدة تنفلت من بين يديك أيها الواعظ، ويداك هما ذاتهما يدا الرب، وهو ما لن تسمح به، وإلا فالموت أهون. وفي حربك مع الشيطان كل الأسلحة مباحة. حتى الاستعانة بالأعداء. الجيش الغازي يزحف نحو سائر البلاد. يفرض سيطرته على البلدات والقرى القريبة، وليست بلدتكم بالصيد الصعب، فالناس هنا أهل زراعة وحرف بسيطة، لا أهل قتال. في تلك الليلة تخلفت عن جولتك الليلية، وعوضًا عنها تسربلت في سوادك مرتحلًا نحو معسكرهم. طلبت لقاء القائد الأكبر وحدثته عن تسليم البلدة دون قتال أو مقاومة. فلما سألك القائد الأكبر عن سلطة تتيح لك التفاوض والتسليم، أخبرته أن كلمات الله هي سلطتك، والمقابل أن تعينك قوته العسكرية على استعادة الهدوء والرتابة وطرد الشياطين من البلدة. وافقك القائد الأكبر وتواعد معك على إرسال كتيبته خلال يومين. التزمت الصمت التام ليومين، حتى جولاتك الليلية أهملتها، فتساءلت أيها العجوز متوجسًا إن كان الواعظ استسلم أم يدبر لك في الخفاء أمرًا. بعد يومين استيقظت على أصوات الصرخات. تحاملت على عصاتك وغادرت البيت لتشهد الدخان يتصاعد من البيوت، وخط الدم يسيل من البلدة وحتى عتبة بابك. خفت واختبأت في بيتك. في حين خرجت الأمور عن سيطرتك أيها الواعظ. الجنود عاثوا فسادًا بعيدًا عن أي اتفاق أو عهود. أخبرت كبيرهم أن معك من قائدهم الأكبر عهدًا، فلطمك لطمة ألقت بوجهك على تراب الأرض. خير البلد تم نهبه طوال اليوم، رجالها الأشداء وصبيانها وأجمل فتياتها، وضعوا في الأقفاص استعدادا لترحيلهم إلى أسواق العبيد. والباقون من عجائز ونساء لم يستطيعوا غير بكاء عاجز. وحدك أيها العجوز تقدمت في شجاعة نحو أضواء الشعلات، حيث الجند وكبيرهم يحملون غنائمهم على العربات. حملت

آلتك وتربعت أمام أعين دهشتهم وبدأت تعزف. جنديين أو ثلاثة استلوا سيوفهم، لكن كبيرهم أوقفهم بحجة ألا خطر من عجوز مخرف يلهوا بموسيقاه، «فدعوه لعله يكن لنا تسلية». لكن نغماتك أيها العجوز لم تكن للتسلية، كنت تعرف أثرها وقوتها. عزيمة الجند فترت، قوتهم أثقلتها وخزات النغمات في القلوب، جلسوا على الأرض يستطعمون الأسى وملح الدموع، بكوا وكل منهم لا يعرف لما يبكي، حتى ناموا كأطفال أنهكهم العويل. قمت أيها العجوز وأخرجت الرجال من أقفاصهم وأمرتهم بتوثيق الجنود بالأثقال وإلقائهم في النهر. وأنت أيها الواعظ أخرسك العجز والخوف من انكشاف أمرك. لم تجد مخرجًا لسخطك وأنت ترى احتفال الناس بالعجوز وموسيقاه، فابتلعت السخط، ورتجت فمك بابتسامة باهتة، وختمت عليها بكلمة شكر للموسيقي العجوز، ثم عدت إلى بيتك، ونمت على فراش القهر، فلم تصحو ثانية.

أما أنت أيها العجوز فلم يقلقك -كما أقلق الناس- عودة منتظرة لأسراب الجنود، فقد كنت تعرف سبيل المواجهة. أمرت الناس أن يصنع كل منهم آلته الموسيقية، وجلست معهم في انتظار الشمس، تعلمهم كيف ينطقون الآلات بموسيقاها.

***

عندما أنهى الحوت حكايته كان ضوء الفجر البكر يعانق من بعيد جسده، فتبدو لأعيننا حدوده -المرسومة بأحمرار الشمس- مخيفة. كنت مندهشًا من مغزى حكايته المفترض، لم أفهم، ولم أشعر أني تطهرت كما وعدنا. مندهش أكثر من رد فعل رضا، الذي سالت دموعه مع الكلمات..

«لا شيء محتوم.. لا شيء محتوم»

ردد الحوت وراءه مؤيدًا:

«لا شيء محتوم»

مع كلمته سد أمام أعيننا اتساع السماء، ومات الضوء الوليد، عندما رفع ذيله ليملأ به ما بين المشرق والمغرب، قبل أن يحط به على صفحة الماء في لطمة عنيفة، انفجرت لها جبال الموج. تفتت القارب، وطار جسدي وجسد رضا إلى السماء، حتى رأينا أسفل منا الحوت الجبار كخط صغير من وهم. صرخنا وصدرينا ينطبقان، وجسدينا يرتجفان. ثم عاودنا الهبوط بفعل نداء الأرض. وأمام أعيننا الحوت يعود تدريجيًا إلى ضخامة حجمه. وفي رحلة هبوطنا تحدث إلينا.

«اعبرا البوابة إلى البدايات الجديدة. والبداية هي ابنة النهاية. من رحمها تولد، ومن

صدرها تطعم. وتذكرا أن لا شيء محتوم»

غاص معظم جسده في الماء، عدا مقدمة الرأس، التي فتح فيها -نحو السماء- فقا في اتساع مدينة. وكنا نهبط مسرعين نحو مركز هذا الفم. كنت لم أزل أصرخ، ولا أدري كيف تماسك رضا في حال كهذا، وتعالى صوته بغناء مشروخ..

«أنا عند النهاية أنتظر

سيأتي ليأخذني من يدي

نحو البحر وكنوزه..

نحو البحر و... و...»

لم يكمل غناءه، فقد بلغنا معًا المطاف الأخير، وابتلعتنا ظلمة جوفه.

***

(2)

كنت أعيش حلمًا. لم يكن حلمًا كأحلامي التي رسمتها في دفتري، وما كان ليراودني وقتها، وإلا لكنت حذفته، وألقيت به بعيدًا في مقبرة الكوابيس. لكنه الآن، وفي لحظة تحققه، يبدو كحلم جميل. هي لعبة صغيرة من ألاعيب القدر. كل منا يظن أنه يقبض على زمام أحلامه، ويعرف تمامًا ماذا يريد لمستقبله. يثق في مسارات سعادته، ويميزها عن مسارات تعاسته. لكن لحظة التحقق، وحين يصبح مصيرك واقعك، تكتشف أنك كنت أحمقًا، وأن السعادة قد تأتي من مسار أبعد تمامًا عما حسبته -لجهلك- مسار السعادة الوحيد.

maktabbah.blogspot.com

أنا الصغيرة الحالمة ابنة الثمانية عشر ربيعًا، أسكن -وحيدة- في بطن حوت، أنام في حطام القوارب، وآكل السمك النيئ، وأشرب من ماء المطر المتسلل إلى جوفه، ممزوجًا بلعابه. لكني سعيدة، أعيش حلمًا جميلًا لم يراودني من قبل. هل هي فرحة النجاة؟ هل هي فرحة الخلاص من عالمي الذي لم أحبه يومًا؟ هل هي فرحة الخروج من قيد الأم وتسلطها؟ هل هو ترقب فارس الأحلام، أميري المجهول الذي وعدني الحوت به؟ لا أعرف، ولم تعد تعنيني المعرفة، طالما أنا سعيدة.

ذات يوم -واليوم في بطن الحوت بلا نهار أو ليل- اندفع الماء المالح إلى الجوف يحمل جسدين ذكريين. أحدهما لشاب والآخر لعجوز. توقفت محتمية بقارب، أتأملهما، الشاب تحديدًا، وأتساءل إن كان هو فارس الأحلام الموعود، شريكي في وضع بذرة الأرض الجديدة.

كانا منهكين، واحتاجا وقتًا من الرقاد فوق الأرض الرطبة، قبل أن يتمكن الشاب من الاستواء جالسًا. انحنى فوق العجوز يتفحصه، كان حيًا، ولكن يئن مغمض العينين. ناداه وهو يهزه باسم «رضا». تذكرت الاسم، ولم أجد جهدًا في ربطه بما بدا لعيني من ملامحه، فتعرفته. رضا الصياد العجوز من قريتنا. يقولون أنه قتل زوجته ليتزوج شقيقتها الصغرى. ارتجفت خوفًا لهذا الخاطر، والتصقت أكثر بخشب مخبأي.

اطمأن الشاب إلى بقاء الروح في جسد صاحبه، فاعتدل واقفًا، يتأمل ما حوله، بعينين مرسومتين ذهولًا وتوجسًا. كان الجوف واسعًا، ينعكس الضوء الشحيح على لمعان الرطوبة في جدرانه، ضوء قادم من لا مكان، يبين لنا تفاصيل الجوف، ومواضع القوارب المبتلعة. وعند نهاية الجوف مسارات وتجاويف مظلمة غير مكتشفة.

دار الشاب حول نفسه، وعندما تقاطع مسار دورته مع نظراتي، خرجت من مخبئي، وواجهت نظرات دهشته. وكأنه عالمي وحدي، قلت:

«مرحبًا في بطن الحوت»

وكأنما قرر تصدير الدهشة إلي، قال:

«أنت فاطمة؟!»

اندهشت بالفعل!

«كيف تعرفني؟!»

«قابلت والدتك»

صمت قليلا، ثم أضاف على جناح الحرج:

«وبت ليلة، أو بعض ليلة، في حجرتك. ورأيت صورتك. وفتحت صندوق كتبك...»

صمت ثانية، وجناح الحرج يعلوه ويظلله. لم أفهم لما أسعدني هذا. على كل حال إن كان هو فارسي المنتظر، فقد اختصر الكثير من المسافات بيننا.

«ومن أنت؟»

«اسمي صالح»

تقدم مني بعدها خطوات وهو يحكي لي عن زيارته للقرية، ومهمته، وما آلت إليه. حكى لي منذ أن وطأت قدميه قريتنا، وحتى حط من السماء في فم الحوت. بعدها أمطرني بالأسئلة. كان فضوليًا، لا يريد إضاعة دقيقة دون أن يقف على كامل المعرفة. كيف أتيت إلى هنا؟ وماذا يريد الحوت منا؟ وإلى أين يأخذنا؟ أخبرته فقط أن كل شيء ستوضحه الأيام. فليس من اللائق أن أخبره أني أنا وهو موجودان هنا للتزاوج! لكن، لماذا هذا العجوز معنا؟

***

كنا نجلس -ثلاثتنا- لتناول طعامنا. أسراب الجمبري تسعى حولنا، في قدر الماء المالح الباقي من عملية الابتلاع. نتناولها ونقضمها سعداء، وكأنها وليمة ملكية، تحملها مائدة من السماء. رضا يحاول إقناعنا بقدرته على إشعال النار من الأخشاب وطهو الأسماك. وصالح يحدثه عن استحالة هذا بسبب الرطوبة الضاربة في أخشاب القوارب. كلاهما مصر على رأيه، وأنا بعد ساعات قليلة من الاجتماع بهما، أصبحت موقنة أنهما يكرهان بعضهما، وإن لم يبدياها صراحة. وبحكم ما أعرفه عن ماضي رضا، وبحكم ما أعرفه عن مستقبلي مع صالح، فكان من الضروري أن أنحاز إلى جانب صالح، وإن التزمت الصمت. كان العقل يناوشني بخيالات عما هو واقع بيننا لا ريب، فتضرب سخونة الاحمرار خدي، وأيمم وجهي شطر

الأرض، حتى لا يقرأ أحدهما ما أفكر فيه. وأدعو في سري الحوت ليتدخل ويرفع عني الحرج، طالما هو يعرف ما سيحدث حتمًا. رغم هذا تتردد في أذني كلماته:

«لا شيء محتوم يا فاطمة»

إذا كان المحتوم ليس محتومًا كما يبدو، فلماذا لا تعينني؟ امنحني الإشارة، ولا تتركني أتخبط في دوامة الاحتمالات.

بعد الأكل أخذتهما في جولة بين القوارب. وأريتهما حاويات الماء التي أخزن فيها الماء العذب الذي يبتلعه الحوت من المطر. شربا حتى امتلئا. بعدها اختار كل واحد منهما قاربًا لينام فيه. الجو في جوف الحوت دافئ، فليس من حاجة لكي يقلقا بشأن أغطية النوم. رضا رقد داخل قاربه المختار، وسرعان ما غط في نومه. منذ أن أفاق من صدمة الابتلاع وهو واجم الملامح. لم يتحدث كثيرًا. ربما هو يفتقد خمره، الذي عرفناه -في القرية- لا يغادر فمه.

عدت إلى قاربي ورقدت بداخله، وتركت صالح عند قاربه. كنت أشعر بتوتر، ولم أزل أرجو الحوت أن يتدخل ويدلني على الطريق. قاربي كان كبيرًا، وبه حجرة خشبية للقيادة، وهي ما كنت أستخدمه للنوم، فتعزلني عن مجال البصر. وللحجرة باب صغير لا يغلق. وأمام الباب وجدت صالح واقفًا يتأملني. اعتدلت جالسة والتوتر يتحول إلى ألم مقبض في أحشائي. كان يبتسم برقة، وكان وسيمًا، لا أستطيع أن أنكر هذا، وهو ما يستحق أن أحمد الله عليه. في هذه اللحظة تساءلت إن كان قد حان الوقت للعب الدور المنتظر. ربما هو كذلك كان يتساءل، وكان يبحث عن كلمات يتحجج بها، فلم يجد أفضل من..

«لقد أردت أن أخبرك ألا داعي للقلق من رضا. اطمئني تمامًا، فأنا أراقبه جيدًا، وسأتدخل لحمايتك عند أية بادرة خطر»

هززت رأسي ممتنة، ولم أنطق. ووقف هو يتأملني للحظات، قبل أن يدرك سخافة موقفه، ويستدير مبتعدًا، دون أن يقول -أو يفعل- ما أتى حقًا لقوله، أو لفعله.

***

صحونا في اليوم التالي -أو ربما هو ذات اليوم ولا ندري- على ثبات الأحوال. لم تزل مراسلات الأنظار الخجولة تتداول بيني وبين صالح، وكلانا لا يدري كيف يبدأ ما نظنه محتومًا. وهل علينا أن نبدأ أم ننتظر إشارته؟ كنت أتأمل العجوز رضا وهو يحاول يائسًا إشعال النار في الأخشاب التي يقتطعها من القوارب الراسية في بطن الحوت. كان غاضبًا. لا يمنحه الفشل يأسًا، وإنما المزيد من الغضب. تساءلت مرة أخرى عن جدوى وجوده معنا. كذلك كان صالح في كلمات قليلة نتبادلها يتعجب من وجود العجوز المثقل بالكبائر، كما

وصفه. في هذه اللحظات كنت أفكر أن الأمور ربما لن تسير كما توقعتها. ربما الحوت لن ينجيني أنا والقرين المنتظر وفقط. ربما لم يزل سيضم إلينا المزيد. عجائز مثل رضا ربما، أو فتيات أخريات مثلي. وربما رجال وشباب أكثر جمالا من صالح. من يدري؟ ربما في النهاية ليس صالح هو الحبيب المحتوم. لذلك قررت أن أنتظر الإشارة. وألا أستجيب سريعًا لضغطات الروح والجسد ونداءات عينيه المتلهفتين.

بعد وقت -ربما يقدر بالأيام- نجح رضا في توليد نار صغيرة. كان سعيدًا. لكن سعادته سرعان ما انطفأت مع انطفاء النار. فشله في الإبقاء على حياتها جعله يعبر الغضب إلى حدود الثورة، حطم الأخشاب وألقاها على امتداد قوة ذراعيه وهو يصرخ. ارتج الحوت بقوة فوقع رضا أرضًا وسط أخشابه. حاول النهوض غاضبًا، فارتج الحوت فوقع من جديد. كرر المحاولة مرات، وفي كل مرة كان يرتج الحوت ويسقطه. آمن رضا في النهاية بمقاييس القوة. وللمرة الأولى بدا عليه يأسًا، وهو ينكمش على نفسه ويبكي. كنت أتأمله متعاطفة. وصالح يرسم شبح ابتسامة بدت لي متشفية، ولا يهتم بإخفائها.

بعد الصحو من نوم جديد رأيت رضا جالسًا في ذات الموضع. يضم ركبتيه إلى صدره ويتأمل في صمت التجاويف البعيدة المظلمة في بطن الحوت. عندما صحا صالح دعونا رضا لمشاركتنا الطعام. كانت أسراب الجمبري والأسماك الصغيرة تتراقص تحت أقدامنا. لكن رضا لم يبال، ولم يتبع نداءاتنا. وطوال الساعات، ومع توالي دورات الجوع والشبع، لم يتحرك رضا من مكانه، ولم يتناول طعامًا.

فيما ظننته المساء، جلسنا -أنا وصالح- متجاورين نتأمل رضا وهو يتأمل الخواء الأسود مسحورًا. أرسل صالح نظرات مطولة إلى وجهي قبل أن يقول، وعيناه تخترق غشاوة الخجل في عيني:

«لقد قرأت في دفترك»

لم أحزن أو أغضب. كذلك لم أفرح أو أتحمس. تلقيت الكلمات باعتيادية الأفعال المنتظرة. فلأنه قد يكون الفارس المحتوم، فمن المحتوم أن يطلع على ما في روحي. هو حقه وليس لي أن أسلبه إياه.

«وماذا علمت عني؟»

«علمت عنك الكثير. وجهلت الكثير»

ابتسمت وسألته:

«أما أنا فلا أعلم عنك شيئًا»

أسبل جفنيه، فأشحت بنظري صوب رضا هارية.

«يكفي أنك تعلمين عن شغفي من نظراتي»

لم يزل النظر هاربًا من صفاء عينيه. بينما الكلمات تسعى إليه على مهد من صوت متهدج..

«حدثني عن نفسك»

«أنا هو أنا، وهذا يكفي»

«يكفيك أم يكفيني؟»

«يكفينا معًا»

«تكلم لكي أراك»

«تكلمي أولا وسأتبعك»

قدرت وقتها أنه -لسبب ما- يقاوم البوح، فقررت أن أسبقه على الطريق، ليقتدي بخطواتي مطمئنًا. التقطت بضعة أنفاس، واسترقت بضعة نظرات لسكون الجسد العجوز الرابض على مسافة منا. ثم بدأت أحكي.

***

حكاية فاطمة والعجوز الطيبة..

لم تكن منذ الأزل «أم فاطمة». كان لديها بدلًا من هذه الكنية، اسم. كما كان لديها بدلًا من اللسان السليط، لسان مكبل بقيود الحياء. وبدلا من الجسد الهرم المتهالك، جسد فتي مشتعل بسخونة الشباب والأحلام الوردية. كانت طفلة، ثم فتاة، ثم عروسا على أبواب الزواج. لكن تلك الأبواب لم تفتح لها قط، لأنها كانت في نظر الناس، وفي نظر والديها، وفي نظر الجمال نفسه، مجرد فتاة قبيحة. بقيت الأبواب موصدة، وأشباح الوحدة تراقص خيالاتها. رحل الأهل، وملأت الأشباح الدار، وباتت الوحدة حقيقة أولى تملأ حياتها. أما الحقيقة الثانية، فهي أن العمر يمضي، وما كان أمامها مزدهرًا، صار وراءها أنقاضًا. وبات اليقين الوحيد في قلبها، أن الحياة مجرد عفن.

حتى جئت أنت يا فاطمة، وكنت ما تزالين جنينًا في أحشاء نجسة. ابنة شقيقتها الكبرى جاءتها من بلاد أبيها البعيدة تسألها الستر. حدثتها عن الغواية، والوعود الكاذبة، والخطيئة. بكت أمامها ترجوها أن تسترها حتى تضع ثمرة الإثم -أنت يا فاطمة- من أحشائها، فما كان بها قوة على قتل جنين بلا ذنب. وبرغم غضب، واحتقار -وربما شيء من حسد- بنوا سدودًا بين أم فاطمة وبين التعاطف مع ابنة الأخت الباكية، إلا أن العجوز آوتها. أخفتها في بيتها عن العيون، حتى وضعت وليدتها. العجوز هي من أسمتك فاطمة، على اسم تمنته لابنة -لم تجن- من رحمها. فلما عادت القوة إلى البدن المنهك من آلام الوضع، غادرت أمك في ليل، وتركتك تبكين في لفائفك فوق فراش العجوز النحاسي.

لم تعرفي كل هذا يا فاطمة سوى في بدايات الشباب، مع استطالة الضفيرتين، وتكور النهدين، والتماع التمرد في العينين. أنت ابنة أم فاطمة. هذا هو كل ما علمته عن نفسك. لم تسألي عن والدك، كما لم يسأل أهل القرية، عندما خرجت عليهم أم فاطمة ذات نهار تحملك في لفائفك البيضاء، وقالت لهم «هذه ابنتي فاطمة». كان للعجوز قوة ومهابة، يخافون لسانها، وحدة طباعها، ويحترمون -في ذات الوقت- كرمها، ونقاء قلبها المستترين، لذا لم يسألها أحد عن تفسير لتلك المعجزة. ولئن قالت لهم أن المخاض آتاها تحت شجرة دون أن يمسسها بشر، لما جاهر أحدهم بتكذيبها. لكن القول الصدق يا فاطمة، أنهم كانوا يعلمون. فما من مخابئ للأسرار في قريتك. لكن لم يكن ليجرؤ أحدهم على تكذيب أمك، أو مناداتها بأي اسم سوى «أم فاطمة» كما أمرتهم في هذا اليوم.

في طفولتك حدث مرتين أو ثلاث أن هاجمك رفقاء لعب أو دراسة مشاكسون بما يعلمونه عنك وتجهلينه أنت. كنت تعودين إلى البيت تبكين وتسألين أم فاطمة عن معاني الكلمات التي شتمك بها الأولاد وغابت عن فهمك. فكان وجه العجوز يحتقن باحمرار البراكين، وتضع

على رأسها الشال الأسود، وتخرج في زيارة سريعة إلى بيت الطفل المذكور في شكواك. زيارة واحدة، تكفي لأن تبكي أمه أمام حشود الجارات المتضامنات تشكو لهن قسوة لسان أمك. وأن يستل أبوه خيزرانته، أو حزامه الجلدي، أو فردة من خفه، ويخط على لحم ابنه قربانًا للسان أمك لكي تصمت عنهم، وتنهال على رأسك قبلات الإرضاء والاستسماح، فتشعرين بقوتك، المستمدة من قوة تلك الأم الجبارة.

لكن تلك القوة لم تدم طويلا في صفك. فقد جاء الوقت لتنقلب عليك يا فاطمة. يوم أن لاحظت أمك نظراتك المراهقة المختلسة من نافذة البيت، نحو الأولاد الذين يلعبون الكرة حفاة على تراب الطريق. ونظرات الولد الذي وقف في المرمى يحرسها، يسددها نحو نافذتك، ووجهك، واحمرار الخجل على خديك، غير مبال بالأهداف التي تخترق مرماه. يومها تحول حنان المرأة إلى قسوة، أو هكذا رأيتها. ربما ما كان تقديرك سليمًا، فقد أصبح خوفها عليك منذ هذه اللحظة، هو وقود أفعالها، وليس محبتها لك، كما اعتدت في طفولتك. في هذه اللحظة رأت على وجهك مصير أمك، فارتعبت. ولهذا ضربتك، وسدت النافذة، وسحبتك من يدك إلى أم علاء، لكي تفعل بجسدك ما لم يطاوعها قلبها طويلا على أن تفعله بك. لكن الآن صارت تراه حتميًا. أنت لم تفهمي كل هذا يا فاطمة. لم تدركي سوى الألم، ولون الدم، وصوت صرخاتك، وموس الحلاقة الحاد يقطع جزءًا من جسدك. أنت كنت -وما زلت- صغيرة لتفهمي قوة الخوف على الأبناء. ولهذا لم تلتمسي لأمك أية أعذار. ولم يشفع لها سنوات أفنتها في حمايتك ورعايتك، وما عدت ترين الآن فيها سوى أم فاطمة، المرأة جامدة المشاعر، سليطة اللسان. وهو ما حرصت على تدوينه في دفترك بدقة، وبأوصاف كاملة، وبتشبيهات وافية، لم تخلو من بعض المبالغة. لم تخطي في دفترك حرفًا عن حنانها، لم تحكي عن رجال تم إذلالهم لأن أبناءهم عايروك أو تنمروا عليك. لم تحكي عن ساعاتها التي أهدرتها في انتظار على رصيف مدرستك، تدعو لك حتى ينتهي زمن الامتحان. لم تحكي عن فسحتك السنوية بصحبتها إلى مولد الولي في المدينة القريبة. حتى عندما عادت علاقتكما تتحسن بقدر ما، عندما علمت الحقيقة، لم تهتمي بتدوين هذا في دفترك. بل أهملتِ الدفتر لفترة، حتى عادت السدود ترتفع بينكما، فرجعتِ إليه. وكأن الدفتر محرم عليه تسجيل الابتسامات، ولحظات الفرح. هل تذكرين يا فاطمة تلك المرأة الغريبة التي طرقت باب بيتكم ذات نهار، وبعد دقائق كانت أمك تطاردها في الشوارع، وتشيعها إلى خارج القرية بما تيسر من صفعات وكلمات. حتى ملابسها مزقتها لها بوحشية، ولم تبالي والمرأة تجري بحثًا عن مكان تستتر فيه من عيون الرجال. أنت لم تفهمي وقتها سوى أن حديث المرأتين المختصر دار عنك. وبعد انتهاء هذا السيرك، وانفضاض الجمع، طالبت بحقك في الفهم. ليلتها حكت لك أم فاطمة حقيقتك. وعرفت أن هذه المرأة هي أمك الحقيقية، جاءت بعد كل هذه

السنوات تعلن توبتها وتطالب بك. عرفت أن أمك لم تكن ضحية لغواية أو قصة حب جريئة كما أخبرت خالتها منذ سنوات تساوي سنوات عمرك. وإنما كانت عاهرة محترفة في المدينة، وما أنت يا فاطمة بالنسبة لها سوى خطأ مهني، كان عليها إصلاحه سريعًا لكي تواصل حياتها العملية!

هذه الحقيقة يا فاطمة، أنت ابنة الخطيئة. جئت من رحمها، وستموتين وأنت تحملينها على ظهرك، على الرغم من أنك لم ترتكبيها. عندما خرجت من أيام الرثاء والحزن، تحسنت علاقتك بأمك من جديد. الآن أنت تدركين كم هي امرأة عظيمة. وكم تحملت من أجل ابنة ليست لها حقًا. لكن فترة السلام انتهت سريعًا، وعدت من جديد إلى أحضان دفترك، عندما لاحظت أن أم فاطمة صارت تعاملك كمشروع عاهرة محتملة. وكأن الأمر يجري في دمك مثل باقي الموروثات. خوفها عليك صور لها أن عليها بذل الجهد لتمنع عنك مصير محتوم. لهذا منعتك من إكمال دراستك، ولهذا حبستك في البيت، ولهذا باتت تتحدث عن ضرورة تزويجك سريعًا وأنت لم تبلغي بعد عامك السادس عشر. أنت اعتبرت كل هذا قسوة، وهي اعتبرته السبيل الوحيد لحمايتك من المحتوم. لقد كانت تحارب القدر ذاته من أجلك يا فاطمة، لكنك لم تفهمين. ربما هي مخطئة، عقلها مكبل بقيود التقاليد والأفكار المحفوظة تحت تراب الزمن. لكنها ليست شريرة كما تصورتها.

حتى جاء الحوت إلى نافذتك للمرة الأولى، وحدثك عن الدور الموكل لك، وأنك أكثر من مجرد فتاة. بل أنت أم العالم الجديد. لحظتها توقفت حياتك. وتعلق كل شيء في انتظار لحظة الابتلاع.

***

عندما أنهيت حكايتي كنت أبكي. بجرأة مغلفة بغلالة من تردد، مد يده وربت كتفي. انتفضت وكأنما لمستني جمرة نار، فأبعد يده متمتمًا بما يشبه اعتذار غير مسموع. كفكفت دموعي، ورسمت ابتسامة. قلت بعد جهد:

«هذه هي حقيقتي، ابنة زنا»

هز رأسه، وبصوت رقيق -لمس قلبي ببرودة منعشة- قال:

«إنه ليس خطأك. أرجوك، لا تحملي عبء خطيئة ليست لك»

ابتسمت بصدق هذه المرة، ولم أجد الكلمات. لو يأذن لنا الحوت الآن، لألقيت بنفسي بين ذراعيه دون اكتراث. هو -وكأنما يقرأ أفكاري- قال بعد صمت:

«ماذا ننتظر؟»

قرأتها في عينيه، لكني ادعيت عدم الفهم..

«ماذا تقصد؟»

«ألا تفهمين؟ إنه قدرنا. أنا وأنت سننشئ عالمًا جديدًا. باختصار، نحن هنا لنتناسل»

احمر وجهي، أرسلت نظراتي إلى البعيد. ربما ارتجف جسدي بقدر ضئيل. هو لم يلاحظ. أو ربما لاحظ وتجاهل، ليتابع متحمسًا:

«أنا هنا من أجلك، وأنت هنا من أجلي. وكلانا يعلم هذا. فماذا ننتظر لنبدأ العهد الجديد؟»

نظرت نحو رضا. وجدت في وجوده طوق نجاة للأفكار..

«وماذا عنه؟ لماذا هو معنا؟»

بدا على صالح غضبًا..

«لا أعرف، ولا أهتم. المهم أني أعرف لماذا أنا وأنت هنا»

«ربما في وجوده حكمة نجهلها»

«ولماذا ننشغل بها، طالما أننا نجهلها؟»

لم أجد كلمات تسعفني. زاده صمتي جرأة، فاقترب في مجلسه حتى تلاصق جسدانا. وفي أذني همس بصوت حارق:

«دعينا فقط لا نعاند المحتوم»

انتفضت مبتعدة عنه. كانت لحظة يجب أن يغلب فيها عقلي رغبتي.

«أنا أفضل أن ننتظر أمر الحوت»

بدا عليه إحباط سرعان ما داراه وراء ابتسامة مرتجلة.

«حسنًا، كما تشائين»

ساد صمت طويل. خشيت اتساع المساحات التي يتركها لجريان الأفكار، واشتعال الرغبات، فأردت أن أشغلها بمسارات الكلام. تذكرت الحديث المعلق، فسألته:

«وماذا عنك؟»

نظر إلي بعدم فهم، فأوضحت:

«دورك لتقص علي حكايتك»

ابتسم. صمت. كاد يتحدث في لحظة قاطعنا فيها رضا. وجدناه منتصبا أمامنا. على وجهه حماس يناقض ما كان عليه منذ لحظات من يأس وكآبة. قال:

«لقد فهمت»

بشيء من سخرية، أو قسوة، أو تقريع، سأله صالح:

«وماذا فهمت أيها العبقري؟»

«فهمت المطلوب منا. تماما كما قال لنا: لا شيء محتوم. وإنما هي الرحلة، وما تقود إليه»

تربع أمامنا. صالح هز رأسه أسفا، أو غضبا. أما أنا فسألته باهتمام حقيقي:

«ماذا تقصد؟»

«علينا أن نخوض رحلة. على كل منا أن يخوض رحلته»

بذات الرائحة الساخرة، تصاعدت كلمات صالح..

«رحلة داخل بطن الحوت؟!»

هز رضا رأسه بالإيجاب. مد سبابته نحو التجاويف البعيدة المظلمة..

«إلى هناك. يجب أن نخترق تلك السراديب. هناك سرداب لكل منا. ورحلة لكل منا. وفي نهايتها المصير»

ضحك صالح مستهزئا..

«أنت تخرف»

في حين سألته:

«وما أدراك بهذا؟»

صمت قليلا باحثا عن كلمات. حيرة ارتسمت في عينيه لحظتها، جعلت النشوة تطفو على عيني صالح، مستعجلا لحظة اليقين المعلن عن جنون الرجل العجوز. لكن رضا في النهاية تكلم، وكانت كلماته مقنعة بالنسبة لي..

«هي فكرة راودتني وأنا أتأمل بوابات السراديب. ربما وحي ماء، أو شيء ما زرع الفكرة في رأسي»

قلت له:

«ربما هو الحوت»

هز رأسه موافقًا. أشرق وجهه بنور الفهم..

«بالتأكيد هو كذلك»

أما صالح فكان كذلك يملك حجة قوية..

«ولماذا لم يوح إلينا الحوت بالمثل؟ لماذا اصطفاك وحدك؟»

«لا أعرف»

جرت الأفكار سريعًا من عقلي وحتى لساني، فقلت:

«ربما هي رحلتك وحدك. ربما أوان رحلتينا لم يحن بعد»

هز رأسه رافضًا..

«كلا. الأمر متعلق بثلاثتنا. على كل منا أن يجتاز سردابًا. هذه هي الفكرة»

قال صالح:

«حسنًا، لماذا لا تسبقنا ونحن سنلحقك»

نهض العجوز غاضبًا. تراقصت في مقلتيه جمرتا نار..

«أنا لست طفلا أو مخرفا لتحدثني بهذه الطريقة. لقد نقلت لكما الرسالة. وعلى كل منكما أن يتخذ قراره. أما أنا فذاهب الآن»

قبل أن يجيبه أحدنا، استدار مبتعدًا نحو الظلام التام. وبتكل آلي، وكأنما يعرف طريقه - لم يتوقف حتى ثانية ليفكر- اختفى داخل أحد التجاويف. كنت مشدوهة. متأثرة. تخنقني الكثير من الأفكار.

«هل تصدقين ما قاله؟!»

«وهل تصدق أنت أننا الآن في بطن حوت؟!»

لم يأت برد، واكتفينا بصمت ثقيل، قطعه بعد فترة تدافع سريع لكلمات حماسية على

لسان صالح..

«لقد فهمت الآن. إنها ذات المعادلة. الخلق يعاد بذات الكيف. أنا وأنت أبوا البشر الجديدان. ومثل أبوينا القديمين، ينقصنا عنصر ثالث لتكتمل نقطة البداية. الشيطان»

لطمتني كلماته بكف بارد، فشل لساني وعقلي، في حين واصل هو حماسته..

«رضا هو إبليس الجديد. وربما تلك السراديب هي شجرته الملعونة. لقد كان يغوينا للتو. يحاول أن يبعدنا عن قدرنا. لكننا لم نسحر بغوايته، ولم نسقط في الخطيئة»

نهض محمولا على انفعالاته. مد يده ليه..

«هيا بنا. علينا أن نثبت الآن إيماننا بالقدر. يجب أن نحقق ما هو محتوم علينا لنهزم الشيطان»

لا **أعرف** إن كنت حقًا اقتنعت بكلماته، أم أن حماسته كان لها سحر أم أنها فقط رغبتي التي تناوشني منذ أن رأيته. المهم أني تناولت كفه، وتركته ينهضني، ويقودني نحو حجرتي المغلقة، في قارب سكني. تواجهنا للحظات وقلبانا -أو على الأقل قلبي- ينتفضان. مسح بكفه الأيمن خدي الأيسر. قال:

«أنت آية للجمال»

طبع بشفتيه قبلة على خدي الأيمن، فانهارت كل دفاعاتي. هم بي، وهممت به. لولا أن رأيت أم فاطمة تغلق نوافذ البيت، وأم علاء تخرج موس الحلاقة الجديد من ورقته، وتغرقه بالكولونيا نفاذة الرائحة. لحظتها انتفضت. أبعدته عن جسدي، وهو لم يزل يتحسس أبعاده. نهضت واقفة..

«ليس الآن. ليس بهذا الشكل. ليس قبل أن يأتينا الأمر»

شعرت به يبذل جهدًا ليداري غيظه..

«أنت لا تفهمين. وجودنا هنا في حد ذاته أمر»

«مهما يكن. الأمر غير خاضع للأفكار أو الآراء. أنا في انتظار أمر صريح. وإلا فإني لست أكثر من صورة لأمي، وأم فاطمة كانت محقة في خشيتها»

نهض بدوره. عدل من هندامه. عبس. زفر. تحدث:

«ليكن ما تشائين. سأبقى في انتظارك»

تحرك مغادرًا الحجرة قبل أن يستوقفه ندائي:

«صالح»

التفت. نظر..

«أنت لم تحك لي حكايتك»

***

حكاية أولى عن رجل البحار..

عرفتها بعد أن عرفت البحر، فسبقت محبتها في قلبي محبته. هي فاطمة. هي الجمال. هي الألق. هي النعيم. هي الثورة. هي الحياة. التقينا في ركن بعيد من العالم، في مدينة على ساحل بحر ليس كبحرنا، يسكنها أناس لا يتحدثون لغتنا، ولا يملكون لون بشرتنا. كنت وحيدًا هناك. ليس لي سوى البحر ودراستي التي قطعت المسافات لأنهيها. في أيام إجازتي، أرتاح من دراسة البحر، فأذهب إلى شاطئ البحر! كيف يتسع البحر ليضم كل شيء، حتى المتناقض منها، فيكون هو شقائي وهو راحتي؟ وهي كانت تحبه، تتحايل على الأيام لتختطف ساعات أمامه مسافرة من مدينتها الصغيرة الحبيسة، حيث تقع جامعتها. كنا طائرين هاجرا وراء العلم إلى آخر الدنيا، فقط ليجدا بعضهما ساعة غروب، فوق رمال ناعمة لم تزل محتفظة بدفء نهار استثنائي. عندما أبصرتها وحيدة تبلل قدميها في زبد الموج، أدركت أنها تحمل جزء من روحي. هي ليست ابنة هذا المكان، هي مثلي، تحمل لوني، ولساني، وموروثات ثقافتي. لا أعرف كيف تمكن مني اليقين وأنا أراها من هذا البعد، حتى أتقدم منها، ودون تردد أحدثها بالعربية، فتجيبني مذهولة بذات لغتي ولهجتي:

«كيف عرفت؟!»

«حبل خفي يوصل بين قلبينا، هو من حمل إلي أنباءك!»

لم تكن سعادتنا بالعثور على بعضنا كسعادة من وجد في الغربة من يتحدث لغته، فقد كان أبناء قوميتنا حولنا كثر. لقد كانت سعادتنا كسعادة نصفان اكتملا. لن يفرق معنا إن كان لقاؤنا في غربة، أو في حضن الأهل، وزحام شوارع مدينتنا. عندما امتد لقاؤنا الأول حتى قرب منتصف الليل، وعندما أصررت أن أسافر معها حتى جامعتها لأوصلها في هذا الوقت المتأخر، لم تكن خانة الجنسية في جواز سفري هي الدافع، وإنما عينا فاطمة، اللتان قد تدفعاني لاتباعهما إلى الجحيم إن شاءتا. أنهينا اللقاء الأول بتبادل أرقام الهواتف وعناوين البريد الإلكتروني ومقدمات الأحلام ومفاتيح القلوب. ثم سهر كل منا في حجرته بسكن الطلاب في جامعته، ينفخ في الشرارة من جانبه حتى تحولت إلى جذوة، فشعلة، فحريق التهمنا لخمس سنوات تالية.

عدت إلى الوطن قبلها بعامين. عامان اقتطعا من عمري، كموت مؤقت. راهنني الكثيرون أن الحبل انقطع، والنار انطفأت، فما كان يربط بيننا هو احتياج الرفقة في الغربة. لكنها عادت لتكذبهم جميعًا. ومعًا انطلقنا نستكمل ما بدأناه. كان مسار الحب أمامنا طويلا مفروشًا بوعود، وأحلام، وواقع سخيف. سنوات الدراسة والجهد والغربة لم تشفع لي أمام صراف

الخزينة في المعهد القومي لعلوم البحار، فلم يدر علي من طرح خزينته راتبا يكفي لتحقيق الأحلام. وفاطمة شاء لها القدر أن تولد لأبوين مسكونين بأفكار معتقة عن العنوسة، والستر، وولد الولد، الذي هو أعز من الولد ذاته! ولا يعني أنهما سمحا لها بالاغتراب وراء العلم إلى آخر حدود الأرض، أن تحرمهما من المهمة الوحيدة الموكلة بها، أن تكن لهما مصدر فرحة، حين تستقر في بيت يحكمه رجل. لذلك كان زمن الانتظار يرتد منتهاه نحونا بسرعة جنونية، كفتيل قنبلة على وشك الانفجار. وفاطمة ما كان بها من جهد للمقاومة. أو ربما -وهو ما أخشى الاعتراف به الآن- ما كانت بها رغبة صادقة. ربما فاطمة بعد أعوام الغربة والدراسة والنجاح، لم تقتل بداخلها الأفكار الموروثة عن الوالدين. نجاح البنت وسعيها في الحياة ليس شيئًا مرفوضًا، لكنه لن يتكلل بالنصر سوى وهي تعيش الستر في ظل رجل. ولم أكن أنا هذا الرجل. والأيام والشهور والأعوام تمر، ولم أستطع أن أقنع أحد -ولا حتى نفسي- أني هذا الرجل صاحب الظل المنتظر. ولهذا كان الفراق. توقعته لأيام، فلما وقع، لم أشعر سوى براحة وقوع البلاء المنتظر. عندما حدثتني بكلمة النهاية، كان حزنها أكبر من حزني، فزادها هذا حزنًا! غادرتني وهي تبكي، ورحلت أنا بروح هادئة، وقلب محترق.

لم أبكها للحظة. فهي في النهاية فضلت عني موروثات ثقافتها، وتقاليد مجتمعها. لكني تأثرت بفعلتها إلى حد الرغبة في تقليدها. فما زادت أعوام حياتي التالية عن حلبة للسعي وراء الموروثات والتقاليد. شقة، فعروسة، فجهاز، فأجهزة، فرقصات مرتجلة سخيفة في قاعة أعراس خانقة. ليتحقق قدري المحتوم في رأس أمي، أمام دموع فرحتها، وتحت زعيق زغاريدها. لكن الأيام كانت كفيلة بابتلاع صدى الزغاريد، ووهج الأضواء في قاعة العرس، فلا يبقى أمامي سوى شبح يسكن بيتي، ويسكن حضني في المساءات. سيدة جميلة بمقاييس مزادات الصالونات، لكنها بالنسبة لي يعيبها أنها ليست فاطمة. حاولت كثيرًا، حاولت لشهور، ثم لأعوام. لكنها بقت دائمًا بعيدة عني. ما كانت تحب البحر، أو الليل، أو الموسيقى الناعمة. لا شيء بيننا يتشابه. لا يوحدنا سوى أنفاس وزفرات تخرج ذات الهواء الساخن في ذات الفراغ الضيق، فتخنقنا. لم ننجب للعالم مزيدًا من البؤس، فكانت هذه مساحة شاسعة خالية لأخط فيها مسارًا جديدًا لحياتي. الطب أكد أن كلانا قادر على الإنجاب. لكننا معًا نشكل سيمفونية تنافر مزعجة. حمدت الله، وقدرت أنها إشارته ومشيئته. تطلقنا، وخلت حياتي إلا من البحر، وذكرى فاطمة. حتى ابتلعني الحوت.

***

بعدها لم نعد نقضي من الوقت الكثير معًا. من بعيد كنت أنظر إليه بنظرة عطف بعد أن حكى لي حكايته. هذا رجل مطعون في حبه. يبحث عن التعويض لم يزل، فهل أكون أنا

عوضه؟ كان يتحاشى حتى النظر إلى وجهي في أغلب الأوقات. لم أفهم إن كان هذا عن غضب، أم أنه فقط يتحاشى أن يزداد تعلقًا وانجذابًا. أيها الحوت العظيم، لماذا تتأخر عنا؟ لماذا لم تمنحنا إذنك وبركاتك إلى الآن؟ ربما صالح محق، ربما الأمر ليس بحاجة إلى إذن كما أتصور. وربما رضا هو المحق، ربما الإذن جاءنا فلم نستمع إليه. تتوجه أبصاري كثيرًا نحو التجاويف المعتمة، ربما يجب أن أذهب إلى هناك بالفعل. أتأمل المسافة بين ذراعي صالح، حيث مساحات صدره القوي. ربما يجب أن أذهب إلى هناك! أيها الحوت العظيم، امنحني شفاء حيرتي.

في هذا الوقت عاد رضا. مشرقًا من العتمة. يسير نحونا منتصبًا راسخ الخطوات. نهضنا على ساقي لهفتنا نترقبه. وقف أمامنا. كان في وجهه شيء غير معتاد أو مفهوم لي وقتها. ابتسم، وبصوت مطمئن قال:

«إنه دوركما الآن»

***

(3)

إلى الظلام، أسير إلى الظلام، ثم المزيد من الظلام. الآن أنا محاط بظلام تام لكني لا أتوقف أو حتى أتساءل عن موضع الخطوة التالية. أسير بثبات وعزم. هذا السرداب سردابي، هنا أنا أعرف خطواتي دون الحاجة لضوء البصر. ليس هنا مجال للتخبط كما في الحياة. لا أترنح في المسارات المغزولة بين الأيام والأعوام، هنا لا مسارات، ولا أيام، ولا أعوام. هنا مسار واحد مقطوع خارج الزمن. مسار أملكه ويملكني. الشيء الوحيد في هذا الكون الفسيح الذي يمكن أن أقول واثقًا أنه لي، هو هذا السرداب، الساكن منذ الخلق الأول، في نهاية تجويف في بطن حوت عملاق ينتظرني.

حتى عندما طال بي السير لم يبلغني تعب، أو جوع، أو عطش. ليست أمامي أي من عراقيل الجسد، فأتساءل إن كان الجسد لم يزل يرافقني، أم أني صرت في شفافية الأرواح وخفتها. هل إن غمرني الآن ضوء، سأبصر يديّ وقدميّ في موضعهما المعتاد؟ أم أني الآن محض شبح يطفو خفيفًا فوق الأرض؟

حتى عندما طال بي السير كنت أعلم أن للرحلة نهاية. ربما أنا خارج الكون، ولكن قوانين الكون لم تزل تسري هنا، كل ما له بداية، له نهاية. والبداية ابنة النهاية كما قال لنا الحوت. فهل يقودني طول السير إلى بداية جديدة للسرداب؟

حتى عندما طال بي السير لم يتوقف العقل عن طرح التساؤلات. علامات الاستفهام هي وقود الرحلة. والرحلة تزرع الدهشة، وتحصد منها الأسئلة. لا مجال للإجابات هنا. لا موطئ قدم لليقين. ربما -فقط ربما- عند نهاية الرحلة أجد شيء ما يشبه المعرفة، أو الإجابة، أو ربما -مرة أخرى ربما- ما يشبه المصير المحتوم.

عند نهاية الرحلة وجدت الضوء. تمزق بالتدريج ظلام سردابي، كاشفًا عن توهج أحمر يراقص الخيالات على رطوبة الجدران. اقتربت بنفس الجد والحماسة. لم تتوتر خطواتي، أو تضطرب أنفاسي. لم أتوجس أو أتحمس. فقط تساؤل جديد، أهي النهاية التي أسعى إليها؟ أم البداية الجديدة التي تسعى إليّ؟ فجأة أصابني ما يشبه الرؤى، فوجدتني أعرف ما ينتظرني عند الضوء. بصيرة تسبق البصر فأرى كل شيء. نفس الحالة التي قادتني إلى الرحلة، وجعلتني أدرك أن اجتياز السرداب هو قدري. الآن أبلغ فسحة الضوء، فأجد ما رأيته حدسًا يصبح يقين العين. نارًا مشتعلة عند جدار يعلن منتهى السرداب. نارًا مشتعلة بثقة وحرارة في بطن الحوت، بعد أن يئست من إشعال ناري في جوفه، وظننت أن الظلام هنا هو المصير. لكني كالعادة كنت مخطئًا. وبجوار النار جلسا يستدفئان في انتظاري. جلست

أمامهما أتأمل وجهين يواجهانني بابتسامتين في رحابة الحياة. فوجدتني أبكي بكاءً تجري فيه العين بمائها، وتتمزق أحشائي بصرخات لا تغادر فمي. بكاء كبكاء الأحلام. بقيا هما على صمتهما في انتظار انحسار مد الدموع. هي كانت زوجتي، قتيلتي الأولى. قتلتها بالخيانة، وبالكراهية، وبضربة من مجداف مركبي القديم. وهو كان الشاب الصغير، قتيلي الثاني. قتلته برصاصة من مسدسي، في جنون آخر ليلة لي على سطح الأرض.

«الدمع يطهرك، فاسعد به»

قالت، فسألتها:

«ألم يمض أوان التطهر بعد؟»

كان الشاب يتابعنا صامتًا. لم يزل قليل الخبرة حتى بعد الموت. هي قالت:

«ليس للتوبة وقت»

«التوبة لا تصلح عند يقين النهاية»

«لم ينفخ بعد في الصور. لم تنسف الأرض، أو تنشق السماء»

ابتسمت في وجهي قبل أن تؤكد بنبرات مشفقة:

«النهاية لم تأت بعد»

سألتها:

«وماذا عن نهايتي أنا؟»

أجابت:

«أنت لم تزل حيًا. لم تزل تتنفس وتنبض وتفكر»

«وماذا عن حياتي؟ ماذا بقي لي في محبسي هذا غير التوبة؟ فهل تقبل التوبة حين لا يكون لي سواها سبيلا؟!»

خمري نفد، فهل امتناعي عنه يعد توبة؟! أنا في بطن حوت، بلا حياة، لا مجال هنا لخيانة أو غدر أو قتل أو سرقة. أنا لا أمتنع عن الشرور الآن، بل هي من يمتنع عني، فهل تعد هذه توبة؟! لم أسمعها أفكاري، لكنها فهمت. لم أعهدها في حياتها متقدة الذكاء أو الحكمة، برغم هذا لم تدهشني عمق محاوراتها. فأنا أدرك أنها - بشكل ما - ليست زوجتي. ربما انعكاس لها، أو توهج بقي بعد موتها.

«التوبة تسكن الروح، لا العمل»

«وكيف لا تقترن توبة الروح بالعمل؟!»

«ربما إن بقيت لك بضع حياة، لبلغت توبتك أعمالك»

«وهل في التوبة مكان للاحتمال؟!»

غادرت جلستها، حبت على أربع حتى بلغتني. مدت يدها تتحسس خدي، استكنت للمستها، وتغلغلتني نظراتها العميقة المحبة.

«كل الحياة احتمال. كل ما تراه وتفعله، كل ما تعيشه، كل المسارات محتملة. أنت مجرد رقم على جدول متشابك لا نهائي من الاحتمالات. ربما روحك تبلغ مسارات محتملة لم تبلغها أفعالك»

أنظر لها في نصف استيعاب. يتدخل الشاب للمرة الأولى..

«لا شيء محتوم»

أنظر إليه. ملامحه مألوفة. هو واحد من شباب القرية، ربما أعرفه، ربما صادقت والده حين كانت لي حياة. ربما ضاجعت أمه، أو خالته أو عمته. ربما فقط هو وجه كنت أراه دون تركيز ضمن عشرات الوجوه لشباب القرية، في السوق مثلا، أو فوق ارتجاج القوارب، أو حول طاولات لعب الدومينو في المقهى. المهم أني لم أتعرفه أو أدرك له هوية قاطعة، هو فقط ذلك الشاب الذي قتلته.

دون كثير من عقل، وبروح ممتلئة بنور متصاعد من عمق ما، وبقلب يستطعم حلاوة شعور وليد، رددت وراءه:

«لا شيء محتوم»

***

كنت هناك الآن، في ذات الليل، وأمام ذات الجمع. فوق رمل الشاطئ بجوار قاربي. صالح في القارب يحاول إطفاء النار بسترة منامته، وأنا منتصب البدن في تحد وجرأة انتحارية، أواجه هجمة بالمشاعل المتقدة من رجال القرية وشبابها.

دعهم يقتربون، فهم لا يعلمون ما يواجهونه.

أخرجت مسدسي وصوبته تجاههم، فأحدث مظهره في نفوسهم توجسا، وأحدث في اندفاعاتهم ترددا، فتوقف المشهد، وتباطأت الخطوات المنقضة. مجرد فئران أنتم. تحرككم -

كقطيع- عجوز مخرفة، وتظنون أني أنا أخافكم. توقفوا على مسافة يخشون الاقتراب، فقررت ألا أتوقف، فلأدع الخوف يضاجع قلوبهم حتى منتهى الانتهاك. لأجل ذلك أطلقت نحوهم رصاصتي. فعلتها كمزحة ثقيلة. كزعيق في وجه الخصم لإخافته. كسبة عالية تربك حساباتهم. لم أشعر -بفعل شيطان الخمر- أن ما فعلته جادًا وخطيرًا إلا عندما رأيت تفجر الدماء من صدر هذا الشاب الصغير، وسقوطه السريع على وجهه. لم يمسك موضع الرصاصة متألمًا كما أراهم يفعلون في الأفلام. لم ينهر على ركبتيه، ويسند بذراعيه جسده. لم يلق كلمتين ختاميتين بصوت ضعيف، قبل أن يميل رأسه معلنًا النهاية. فقط سقط على وجهه كلوح خشبي. ومعه سقط المسدس من يدي. تجمد جسدي ذهولا. في أعماقي قطرات الخمر تصرخ: ما بك؟ لماذا توقفت؟ يجب أن تهرب. لماذا الذهول وهو ليس بقتيلك الأول؟ لكن جسدي لم يطع، حافظ على تجمده أمام النظرات المذهولة. الموقف كان لابد وأن يتفجر، حدثت الانقضاضة كموجة هادرة. كانت كل الأيادي تتجاذبني، وكل الأرجل تركلني، سقطت على الأرض تحت أطنان من ضربات غاضبة، وصرخات وسباب. كنت في قلب بحر هادر من جنون القطيع. لم أشعر بشيء، لم أحاول التملص أو الدفاع عن نفسي. استسلام تام، وكأنني مللت. مللت الهرب من خطيئة إلى أخرى. مللت الخوف. مللت الضياع في ذاتي المسكونة برغباتها، أو ربما قررت الاندفاع وراء آخر رغباتي، الموت. وكأنما قررت أني أستحق هذا الموت البطيء القادم في أعقاب العذاب. لكن العذاب لم يدم طويلا. فجأة صرخ أحدهم:

«إنها عائدة»

لم أدرك عما يتحدث، لكني أدركت أن الهواء وجد طريقه لأنفاسي، وضوء النجوم أشرق فوق رأسي مرة أخرى. انفض الجمع في ثوان، فصرت في العراء، ممددًا فوق رطوبة الرمال. رائحة البحر كانت قوية، وهدير الماء لم يكن كالمعتاد. رفعت رأسي فأدركت أن المد يسعى نحوي مسرعًا. ليست موجة عاتية مثل التي ضربتنا سابقًا، وإنما مد سريع، وكأنما البحر يزداد اتساعًا ويأكل أرضنا. غمرني الماء، وجرفني معه. قاومت لأطفو. خرجت الرأس فوق سطح الماء لتأكل الأنفاس. مر بجواري قاربي فتعلقت به وانجرفنا معًا. الماء كان يغمر في طريقه كل شيء. يعلو ويعلو بلا توقف. دقائق طويلة حتى هدأت موجة المد، واستقر البحر. تركت القارب، وسبحت حتى خرجت من الماء لاهثًا. نظرت ورائي فما رأيت سوى البحر. قريتنا كانت هنا في مكان ما؟ البيوت، والربوة العالية، وأشجار النخيل، كل شيء ابتلعه البحر. ليس هناك سوى أجساد ورؤوس تطفو فوق سطح الماء، تسعى نحو الشاطئ الجديد حيث أقف. لم أكن لأنتظرهم. برودة الماء خففت آلامي، وغسلت عن وجهي الدماء، فاستدرت بجهد قاطعًا الخطوات نحو رحلة مجهولة المنتهى.

بعد خطوتين وجدت طريق السفر أمامي. البحر تمدد حتى بلغ حدود الطريق السريع. وقفت متلمسا صلابة الأسفلت. الطريق مظلم ولا سيارات تمر. هل أنتظر النجدة؟ ربما تأتي الشرطة وفرق الإنقاذ قريبًا، وربما لا، فقد مضى الوقت طويلا منذ أن ضربتنا الموجة، ولم يبال بنا أحد. لذلك قررت أن أبدأ مسيرتي. يممت وجهي شطر المدينة القريبة، وقطعت أولى خطواتي.

انقضى فجر، وصبح، وظهيرة، وشمس قطعت ثلثي رحلتها، حين بلغت المدينة. كنت منهكًا، وجائعًا. جلست فوق أقرب رصيف، وسندت ظهري على حائط متشقق، ورحت في النوم. استيقظت على المزيد من صراخ البطن، دون أن أدري كم غبت. قدرت أن النوم لم يحتوني سوى لدقائق، فضوء الشمس لم يزل حاضرًا، وإن بهت، وشابته حمرة الغروب. تأملت الشوارع حولي. الخواء يغلف كل شيء. الحركة نادرة، والناس قليلون. والسيارات التي تمر تأكل من لحم الطريق لفرط سرعتها. فهمت أن ناس المدينة يهربون، فربما بلغهم أن البحر قادم، فقرروا الخوض إلى الأبعد.

نهضت حاملا تعبي وجوعي وقطعت الشوارع نحو هدف يائس، وأمل ضعيف. هنا حيث كانت تسكن شهد، فربما عادت بأبنائي إلى طليقها. بلغت البيت، صعدت درجاته المتآكلة، وقبل أن أطرق الباب وجدته مفتوحا. دخلت فلم أجد أحد. الدواليب والخزانات فارغة، لقد رحل قاطنو المنزل. لكنهم رحلوا على عجل وتركوا وراءهم شيئين قضيا لي حاجتين في نفسي. حاجة البطن قضيت حين عثرت في الثلاجة على قطعة جبن ورغيف يابس وبضع ثمرات طماطم وكوب نصف ممتلئ من اللبن، فكانوا لي وليمة مشبعة. أما حاجة الروح فقد قضيت حين تعثرت خطواتي في دمية قماشية ملقاة على الأرض. هي دمية وداد. فأدركت أن أبنائي بالفعل كانوا هنا. بالفعل عادت شهد إلى طليقها. هربت من رمضائي إلى ناره التي أحرقتها لسنوات. مسكينة شهد، لم تشهد في حياتها أية اختيارات مبهجة، عاشت متخبطة في مسارات كلها تنتهي بالفاجعة. احتضنت الدمية وبكيت كثيرًا. بكيت حتى نمت. هذه المرة كان النوم عميقًا، اخترقته أحلام عن زوجتي وأبنائي وأمي، وكوابيس عن شهد، لكنها لم تقلق نومي أو توقظني.

صحوت عند ظهيرة اليوم التالي على صوت الصرخات. كانت بعيدة، ولكن حواسي كانت مشحوذة أكثر مما ظننت. خرجت إلى الشرفة، فبلغني صوت الهدير. أدركت عندها أن البحر قادم. خرجت قافزًا فوق الدرجات حتى الشارع. قدرت اتجاه صوت الهدير، ثم سعيت راكضًا في الاتجاه المعاكس. مرت بجواري سيارة منطلقة في ذات اتجاهي، أشرت لسائقها، فتجاهلني ومضى في طريق هروبه. الهدير كان يتعالى. قدرت من الصوت أنه فاصل جديد

من التمدد كالذي ابتلع قريتنا، وليس موجة عملاقة ساحقة أخرى. لكني لم أتوقف لأسترق النظر. واصلت الركض، حتى تعثرت في صوته، كان يبكي عاجزًا، أوقفني بكاؤه، ودفع بصري لمسح المكان بحثًا، فوجدته منكمش الجسد خلف صندوق قمامة معدني. طفل لا يتجاوز عمره الخامسة. رفعته عن الأرض واحتضنته، وواصلت الركض. لكن توقفي السريع هذا عطلني، فأدركني الماء، ومرة أخرى وجدتني محمولا فوق اندفاع البحر البارد.

هذه المرة كان الطفو شبه مستحيل وأنا أتشبث بالجسد الضئيل، وهو يتشبث بي. غمرنا الماء معًا، وبرغم جهدي، وضربات ذراعي اليائسة، بدا الغرق وشيكًا. لحظتها لمحت عامود الإنارة المنتصب. قبضت عليه بيدي، وكأنما أقبض على الحياة ذاتها. تشبثت به، واندفعت نحوه حتى احتضنته بكامل ذراعي، وأنا أطبق على الصغير ذراعي الآخر، والماء يندفع حول جسدينا، ويجذبنا نحو الموت، فأزداد تشبثًا بذراع كاد أن يتمزق. دقائق مرت في طول الأعوام، حتى استقر البحر، وتوقف تمدده. لا أعلم إلى أين انتهى به المطاف، ولا على أية مسافة منا صار الشاطئ الجديد. ربما أنا الآن في نقطة في عرض البحر حولي قمم المنازل والأشجار وأعمدة الطريق. وضعت الصغير على ظهري وأمرته أن يتشبث جيدًا، وبدأت أسبح بحثًا عن الأرض. كلما كلت يداي، وانهار البدن، تمسكت بشرفة بارزة فوق الماء، أو جلست على فرع شجرة علت فوق سطح البحر، حتى أسترد الأنفاس ثم أتابع رحلتي. بعد الكثير من الجهد، وبعد اكتمال رحلة اليوم نحو الظلام التام، بلغت موضع الأرض. انهرت ممددًا وبجواري الصغير، وغبت عن العالم، في نوم، أو شبه إغماء.

maktabbah.blogspot.com

صحوت على قوة مجهولة ترفع جسدي عن الأرض. فتحت عيني، كنت محمولا على محفة، على يد رجلين بزي عسكري. رفعت رأسي بحثًا عن الصغير، فوجدته مرفوعًا على كتف رجل ثالث يسعى أمامنا، فاطمأن قلبي، وأعدت رأسي لموضعها، وعدت إلى سباتي.

في الصباح التالي كنت محمولًا مع مجموعة من الناجين في شاحنة عسكرية أقلتنا إلى معسكر للنازحين مقام على أرض بعيدة مرتفعة. لا أحد يعرف ما يحدث، وكأن كل البحار جن جنونها، وخرجت تأكل من الأرض والناس والحياة. جميعهم يؤكدون أنها نهاية العالم. لكن الحكومات والعلماء ورجال الحروب لا يعرفون يقينًا ما يحدث، ويتحسبون لكل شيء.

عند بوابات المعسكر سألوني عن الطفل الذي أحمله فأخبرتهم بحكايته. رفضت أن يأخذوه مني. بكيت ورجوتهم أن يتركوه لي، فأنا سأرعاه. وافقوا بعد أن قاموا بتصويره، لطباعة نشرة بصورته تعلق على جدران المعسكر، فربما كان والداه من الناجين هنا. حصلت على فراش واحد لنا معًا في مخدع الرجال، تناولنا طعامًا ساخنًا، فامتلأنا، ونمت وهو في حضني مطمئنًا، دافئًا، لأول مرة منذ زمن. قبل النوم تحدث معي، لأول مرة أسمع صوته،

عرفت أن اسمه سعيد، وأن والده يعمل نجارًا. تذكرت الأبناء عندها، فعزمت أن أبحث عنهم حين استيقاظي، فربما كانوا من سكان المعسكر.

في الصباح تناولت الفطور الذي منحوه لي. سعيد أكل معي، وبدا أكثر اعتيادًا علي وعلى المكان. لفت نظره أطفال في أعمار متقاربة يلهون في الفناء، فسمحت له باللعب معهم على ألا يبتعد، ولا يغادر الفناء حتى عودتي. ذهبت إلى المكتب حيث سجلات الأسماء لأبحث عن أسماء أبنائي. لم أجد منهم أحدًا، ولكنني وجدت شهد.

دخلت القاعة المخصصة لنوم النساء. كانت -كما عرفت- مفتوحة ومسموح للرجال بدخولها طوال ساعات ما قبل الغداء. كان معي رقم الفراش فسهل علي إيجادها. كانت ممددة الجسد، وساقها اليمنى متصلبة قهرًا داخل رداء من الجبس الجاف. نظرت لي بذهول حين اقتحمت غفلتها:

«صباح الخير يا شهد»

جثوت أمام قدميها راجيًا العفو باكيًا. برغم طول البكاء لم تذهب عن عينيها نظرة البغض، وكنت أعرف أني أستحقها، لذا نهضت ململمًا أشلائي، وسألتها:

«سأتركك الآن إلى الأبد، فقط أريد أن أعرف ما صار لأبنائي»

بشراسة قالت:

«بل أبناء أختي هم»

كانت محقة، وكنت أستحق..

«حسنًا، أين هم؟ أرجوك»

بدا على ملامحها ما يشبه اللين. تجولت في صمت بين أفكارها لفترة، ثم اختارت البوح..

«لا أعرف أين هم. لقد فقدتهم ضمن تدافع الهاربين»

تنهدت قبل المتابعة..

«كنا خمسة، أنا وطليقي والأولاد الثلاثة، والخلق يتدافعون من كل اتجاهات الأرض، والبحر يطاردنا، ويطردنا من بيوتنا وبلداتنا، فنتزاحم ونتدافع للقفز في شاحنات الإنقاذ»

ربتت بيدها على جبيرتها الجبسية..

«هذا ما طالني. أما الطليق وأبناء الأخت فقد اختفوا. قالوا لي هنا أن هناك معسكرا آخر قريب، فربما ذهبوا إليه. وكنت أنتوي الخروج إليه بحثا عنهم بمجرد أن تشفى ساقي»

صنعت من أهدابي قضبانا وحبست الدموع وراءها..

«أنا سأفعل»

قالت محطمة قضباني:

«الآن تهتم بأمر أبنائك؟»

انفجرت الدموع من جديد، اختنقت بها لدقائق طويلة، بلا متسع لإخراج الكلمات. نظراتها تحولت من الكراهية إلى الشك إلى التعاطف، فلما شققت مجرى للكلمات قلت صادقًا:

«هم ليسوا أبنائي.. فأنا لا أستحقهم. هم أبناؤك أنت يا شهد، هم اختاروك. سأعيدهم إليك هم وطليقك، ثم أمضي!»

قالت وفي عينها حرج لكشف أوراقها:

«لا يهمني هو، فأنا ما عدت إليه إلا يأسا وهربًا منك»

اعتدلت وشددت قامتي مقاوما موجة عاتية جديدة من ماء العين، ثم قلت لها:

«سأعيدهم لك. أعدك»

في المكتب قالوا لي أن أقرب معسكر يقع على مسافة بعيدة. اكتفوا بالوجوه المتجهمة، المعلنة -دون تصريح- ألا رغبة لهم في المساعدة. توجهت إلى قائد المعسكر، فوجدته جالس في استرخاء، وقد ترك سترته وطائره ونجومه الثلاثة على مشجب بعيد عن يديه، مكتفيا بهوية مؤقتة كواحد منا. شرحت له تفاصيل الشوق للأبناء، وتشقق القلب خوفًا على مصيرهم، عسى قلبه يرق لحالي. هز رأسه، وأطلعني على سرهم، مغلفا بتوصيات بضرورة الكتمان، الاتصال مقطوع مع المعسكر الآخر، ولا يعرف أحد السبب. والاحتمال الأكثر وقاحة أن يكون البحر ابتلعه. دارت الرأس ولانت الساقين تحت ضغط الفكر والهم المفاجئ. بإصرار يحمل رائحة رغبة في الموت طلبت منه تفصيلا بمكان المعسكر الآخر. منحني إياه بعد إقراري كتابة بإدراك الخطر القائم خارج المعسكر، خاصة وأني سأمر في طريقي على أراضي منخفضة، وأنه غير مسئول عن أي ضرر يصيبني. بعدها منحني ورقة صغيرة بها اسمي وتوقيعه، كتصريح لي بحرية الخروج من المعسكر.

حملت مبتغاي وعدت إلى مخدع الرجال. سعيد كان لم يزل يلعب في الفناء مع رفاقه الجدد. جلست القرفصاء مرتكنا إلى حائط أتابع لعبهم، وروحي تحترق لأجل رشفة من خمري تعينني على حمل ما لا أقدر على حمله، فأقاومها مستعيذًا بالله من الشيطان. وقت الغداء اقترب، وكان علي أن أسرع بتنفيذ ما انتويته قبل أن يغلق مخدع النساء في وجهي. ناديت سعيد فجاءني متذمرًا غاضبًا لمقاطعة لهوه. وضعت يدي على كتفه أقوده عبر الفناء الواسع وأنا أحدثه عن شهد وأشوقه للقائها. بلغنا مخدع النساء فدخلت على شهد لتلاقيني بموجة ثانية من حيرتها. أجلست سعيد بجوارها وجعلته يقبلها ويتمنى لها الشفاء. رق قلبها وابتسمت في وجهه. حدثتها بحكايته وطلبت منها أن ترعاه حتى أعود. حدثتني عن صعوبة الأمر، لكن قلبها المشتاق لمطاردة مصير أبناء شقيقتها جعلها توافق مؤكدة أن جاراتها في المخدع سيعينونها على حمل أمره، فاطمأن قلبي. قبلت سعيد وأمرته بحسن السلوك، فهز رأسه طائعًا، ثم غادرتهما. وبعد الغداء غادرت المعسكر كله مشهرًا في وجه حراسه التصريح الموقع باسم القائد.

المسيرة كانت شاقة وسط أراضٍ جبلية منحدرة. كنت أتحرك ببطء خوفًا من سقوط يدق عنقي فوق الصخور، حتى بلغت الطريق الممهد واستوت الأرض تحت خطواتي، فبدأت فصلا من مسيرتي أكثر سرعة بقدر ما سمحت لي ساقاي المكدودتان، وقد تحولت خيالات الخوف في أركان عقلي السوداء، إلى خوف من ملاحقتي بموجة جديدة من تمدد البحر.

كانت رحلتي في تقديري قد بلغت منتصفها. متيقن أن بإمكاني بلوغ المعسكر المنشود قبل الظلام. على أن أبيت فيه ليلتي، ثم أعود صباحًا حاملا الأبناء أو خيبة الأمل. الوقت كان عدو الآن، فما ترك لي متسعًا لاستراحة أو لالتقاط الأنفاس. لحظتها هدرت فوق رأسي المروحيات العسكرية المحلقة. رفعت رأسي إلى السماء، فوجدت سرب الطائرات يعبر عكس اتجاهي على ارتفاع قليل، حتى شعرت بمراوحها تقلب الهواء حولي في زوابع صغيرة. هالني المشهد ولكنني لم أتوقف، ولم أحاول أن أشغل العقل بتأمل دلالاته، أو توقع ما ورائه، حتى لا يفتر العزم. لكن حين بلغ بي السعي منتهاه، ووقفت أمام أسوار المعسكر المنشود. أدركت أن ما كنت أحاول إبعاده عن عقلي -كهواجس مقلقة- صار حقيقة واقعة، المعسكر كان خال إلا من بضعة جنود يحملون آخر ما بقي من أغراض ومتاع إلى آخر مروحية لم تزل رابضة على الأرض ومروحتها تهدر فوق رؤوسنا. كان الوقت شارف غروب الشمس، والرؤية اكتست بضبابية حزينة، حين توجهت لضابط شاب وقف يشرف على عملية تحميل المروحية. ذهل لرؤيتي ظنًا منه أني ساكن بالمعسكر تم نسيانه في فوضى عملية الإخلاء المتعجلة. صححت له الصورة وعرفته بنفسي وبمبتغاي، فأجابني بنبرات متعاطفة:

نسيم الصباح البارد بلغتني رائحة أعرفها جيدًا. سعيت نحوها. عبرت دغلًا صغيرًا من الأشجار العالية. خطوات قليلة ووجدت شاطئ البحر أمامي. كان مظهره مخيفًا. ليس البحر المعتاد، وإنما وحش راقد في استراحة إلى حين انقضاض جديد، والأشجار تخرج من ظهره كأشواك سامة، وصوت الأمواج كتتالي أنفاس ناعسة من منخاري تنين، سيصحو في أية لحظة وينفث منهما النار. ارتجف قلبي مستعيدًا ذكرى اقتراب الموت مرات في الأيام السابقة بين أنياب البحر. استدرت مبتعدًا بخطوات واسعة. الآن أخاف من الموت بعد أن تمنيته طويلًا. لكن ربما ليس خوفًا، ربما أنا ببساطة لا أخطو هاربًا من الموت، وإنما أسرع سعيًا إلى حضن حياة جديدة.

قبيل الغروب بلغت معسكري. مخدع النساء أغلق في وجه الرجال وما عاد أمامي سوى انتظار الصباح لملاقاة شهد وسعيد. الجنود عند البوابة أبدو سعادة بعودتي، وكأنما لم ينتظروها. بعد دقائق جاءني منهم من يخبرني أن القائد يريد مقابلتي. ذهبت إليه في المكتب الكبير. سألني عما رأيت في رحلتي، فحدثته بتفاصيل ما صار. أخبرني أن اللاسلكي أذاع منذ قليل أنباء عن استقرار الأوضاع في معظم مناطق العالم، لكن الحذر لم يزل مطلوبًا، لهذا ربما تم نقلنا كذلك إلى الجبال البعيدة. لم أجد ما أرد به على كلماته سوى دعوات لله بإصلاح الأحوال، وغادرت مكتبه وأنا أحمل منه أمرًا موقعًا بحقي في وجبة غداء متأخرة. صرفت الوجبة من المطبخ والتهمتها على فراشي. ثم نمت دون أن أدري إن كنت أنهيت طعامي أم لا.

في الصباح توجهت إلى مخدع النساء، فوجدت شهد خارج فراشها. لم تزل ساقها في الجبيرة وحركتها شاقة مدعومة بعكاز خشبي، ولكنها سعيدة ببذل الجهد، وكأنما -مثلي- استعادت الرغبة في الحياة. كانت تطعم سعيد فطوره. تهلل وجهه الطفل حين رآني. احتضنته وقبلته وحكيت لشهد عما حدث في رحلتي المختصرة. تفاءلت خيرًا. قالت لي وكأنما تواسيني:

«قريبًا سيجمعنا الله بهم»

لأول مرة تتحدث وكأنما المصاب مصابي. ولأول مرة تجمعنا معًا في جملة تحمل بشرًا. أمسكت بيد سعيد عازمًا العودة به إلى مخدعنا. فقبضت شهد برفق على يده الأخرى..

«اتركه معي قليلًا»

كانت تتحدث برجاء لم أدر كيف أصده. وكنت أنا أريد استعادة الولد الذي صار مكانه راسخًا في قلبي وكأنما هو من دمي. لكني استسلمت لتوسلات عينيها.

«سآمر لآخذه وقت الغداء»

توقعت منها مقاومة، لكنها قالت بوسع ابتسامتها:

«ليكن»

غادرت إلى الفناء. تجولت قليلًا تحت شمس غير حارة، أتأمل الوجوه وتتأملني. ذلك الجمود. وتلك الشرارة العابرة للنظرات. وجوم سائد يحمل بالتأكيد ذات التساؤل، هل يمكن أن يحصل لنا هذا النهار الجميل موتًا؟ أيكون للموت مثل تلك المقدمات الرائعة؟ ربما النسيم الخفيف ورائحة الأشجار ودفء الشمس يوحون لنا برسالة اطمئنان بأن الخطر قد زال. جاءني جندي يسعى ليخبرني أن قائد المعسكر يريد لقائي. توقعت أن يكون وراء الاستدعاء ما وعدني به الضابط الشاب بالأمس. وبالفعل كانت كلمات قائد المعسكر طاعنة للآمال وهو يخبرني أن إشارة لاسلكية جاءتهم من المعسكر الجديد تخبرهم أن أسماء أبنائي -التي أودعتها في عنق الضابط الشاب أمانة- ليست مقيدة لديهم. كتمت في نفسي الحزن وعزمت لحظتها أني لن أخبر شهد بما علمت، ولأترك الأمل يدعم روحها لما بقي لنا في الحياة من أيام أو ساعات.

لكن ما بقي لنا من حياة كان أكثر مما أحصاه خيالي. أسبوعان مرا علينا هنا. كنا نتغذى على الأمل يوميا في شكل إشارات لاسلكية يرميها لنا عالم ما خارج المعسكر، تحكي عن انحسار الماء، وعودة الحياة، ورحمة الله بنا. الابتسامات نحتت على الوجوه بالتدريج، حتى اتسعت لتبتلع الهواجس والمخاوف. لكن حين استحال الأمل يقينًا، وجاءنا الإذن بإخلاء المعسكر، ارتدت السعادة إلى بؤس، والمخاوف صارت غمًا، فحين تدرك أنك لن تلحق بمن سبقوك، يأتي وقت الحزن على فراقهم. أصوات ملأت فضاء المعسكر متدرجة من النهنهة إلى العويل. كل من فقد عزيزًا تذكره في تلك اللحظة، بعضنا بكوا أمواتًا غادروا الدنيا منذ أسابيع. كنا نجمع رحالنا ونسجل -عند نهاية طابور طويل- في أوراق الجند عناوين سكننا القديمة. أخبرتهم أني أريد العودة للمدينة حيث يمكن أن أعثر على أهل سعيد. عند ظهيرة هذا اليوم ألقيت آخر نظرة على المعسكر، من صندوق الشاحنة المرتجة فوق طريق الصخر، تنقلني أنا وسعيد وسط فوج من عشرات الرجال من ساكني المدينة. عند الطريق الإسفلتي التحقنا بقافلة من عشرات الشاحنات، كلها تقصد ذات وجهتنا.

قبيل الغروب وصلت إلى المدينة. وفي الموضع المتفق عليه التقيت شهد. حالة ساقها تحسنت كثيرًا. لم تفك جبيرتها بعد، لكنها صارت أكثر قدرة على السير دون مساعدة. قالت أنها ستذهب إلى بيت طليقها، فليس لها من مأوى غيره، وربما عاد مع العائدين ومعه الأبناء. أخبرتها أني سآخذ سعيد في جولة بالمدينة عساه يتذكر مسكن أهله. بدا على شهد حرجًا،

وكنا قد تقاربنا في الأيام الأخيرة بالمعسكر، وازداد تعلقها بسعيد. قالت مغالبة انفعالات ارتسمت على خديها احمرارًا:

«إن لم توفق، فتعاليا إلى بيتي، فلن تجدا لكما مأوى سواه»

لم أجبها، ولم أفصح عن أفكاري أو مشاعري، مقررًا ألا أستبق الأحداث. ولساعات قطعت شوارع وطرقات لا أعرفها. كل شيء في المساء غارق في الظلام. قبل مغادرة المعسكر وعدونا أن تعود الخدمات للمدينة في أسرع وقت. فلا كهرباء الآن ولا ماء. فالمدينة لم تعد من أحضان البحر سوى منذ أيام. البيوت متآكلة بفعل الملح، والشوارع لم تزل مكسوة بطين البحر. ورائحة الأعشاب البحرية المالحة تملأ الأجواء. سعيد في يدي كان يصرخ من التعب والجوع. وأنا كنت أتساءل عن سر الجهد اليائس، فما المنتظر من طفل مثله يمر بطرقات معتمة، وبيوت تغيرت معالمها. هل حقًا كنت أنتظر نتيجة إيجابية؟ أهي بالفعل عملية بحث؟ أم أني فقط أهرب من قلب يتوق إلى ضمة من ذراعي شهد، وقد تحررنا من أسر المعسكر، وصار بالإمكان اجتماعنا في بيت دافئ، دون قواعد تنظيمية، أو أسوار عزل؟ حين صارحت النفس بما يفور بأعماقها، قررت أن آخذ سعيد إليها، وأبحث لنفسي عن أي مأوى حتى ولو قضيت ليلتي على رطوبة الرصفان.

طرقت بابها، فتحت بسرعة -بعد خطوات مهرولة بلغتني أصداؤها من وراء الباب، تقرع الأرض العارية- اللهفة في عينيها، وفي انحناءة جسدها نحو سعيد تحمله وتقبله. وقفت على الباب تنظر نحوي، وكأنما تتوقع مني إعلانًا ما. فلما طال صمتي تساءلت:

«هل وجدت أهله؟»

أجبتها:

«الشوارع مظلمة، وهو متعب. لذا لم نكمل بحثنا»

شيد الحرج سدودًا بيننا. من أين أتى وقد كنا منذ أزمان قريبة نتشابك في عربنا الوقح فوق الأرض القذرة ورائحة السمك النتنة؟ أم أنها محض خيالات في رأسي لما تمناه عقلي ولم يحدث في واقعنا قط؟! كيف أبعدتني بعض أيام في معسكر الفارين عن ماضي أعوامًا وقرونًا، وكأن رضا كان وما عادا! وكأن شهد أرادت دعم أفكاري عن ذاتي. وكأنما تعلن أن ما كان لم يعد، وأن شهد ورضا صارا جديدين في حياة جديدة، قالت:

«ادخل يا رضا. سنبيت ليلتنا معًا»

قلت:

«هذا لا يصح»

ابتسمت، وفي عينيها ارتسمت قوة من زمن فات. هذه عينا شهد التي عرفتها قديمًا. قالت:

«أنا لا أعرفك، وأنت لا تعرفني. ولا العالم يعرفنا. فلا تخشَ شيئًا، ولا حتى نفسك»

كيف نطق لسانها بكل هذه الحكمة؟ وكيف فهمتها، وآمنت بها، وقررت اتباعها؟

عشنا معًا سبعة أيام. كنت أنزل في كل صباح أتسلم تموين اليوم، وأدور لساعة أو أقل مع سعيد في شوارع المدينة أدعي بحثًا لا أرجو له أن ينجح. لم أكن في الحقيقة أتقبل فراق سعيد، ولم أكن أتقبل أن أمنع عنه جهدًا قد يعيده لأحضان أهله. لكن في النهاية، أنت تكذب على نفسك يا رضا. فما تفعله لن يقود لشيء إلا ما ترجوه، الفشل. أتساءل الآن لماذا أتمسك بسعيد؟ أهي محبة زرعت بيننا كما أتمنى؟ ألإنه حياة جديدة، تدعم بداية جديدة أرجوها؟ أم لإنه فقط صار رباطًا نقيًا بيني وبين شهد؟ كانت التساؤلات تتحطم في لحظات الجمع، حول الطعام نتناول وجباتنا ونضحك. أو حول التلفاز الذي عاد ليبث لنا بضع إرشادات يومية تحثنا على أداء واجبنا لإعمار الأرض من جديد. وفي المساء تنام في حجرتها وفي حضنها يرقد الطفل، وأنام أنا على فرش في صالة البيت.

بعد يومين اعتدت الانخراط في أعمال التنظيف وإعادة البناء. عمل شاق يشارك فيه الجميع دون انتظار لمقابل أو ربح. الجنود يقودون جهودنا، ويومًا وراء يوم نتنزع المدينة شيئًا فشيئًا من براثن الموت والكآبة، وتعود لها الحياة. قريبًا ستعود الأعمال، ستفتح المحال، والمصانع، وسيهزم الإنسان خوفه الوليد من البحر، ويعود لترويضه. الحياة ستستمر. هكذا آمنت، وهكذا أكدت لي شهد:

«الحياة ستستمر يا رضا، دعنا ننس إذن ما ضاع»

لم أفهمها في البدء، لكن عندما بثوا عبر التليفزيون إشارة بضرورة التوجه بأي معلومات عن مفقودين أو تائهين وتسجيلها في سجلات خاصة تم فتحها في كل المدن، وخاصة الأطفال، في محاولة للم شملهم بآهاليهم. لحظتها ظننت أني فهمتها. نظرت إلى عينيها، وتساءلت:

«أحقًا نستطيع أن ننسى؟»

«بل يجب أن ننسى»

نظرت إلى سعيد الغافي بيننا، وقلت:

«وماذا عنه؟»

«إنه لنا. تزوجني يا رضا، وليصبح سعيد لنا»

كنت أفكر، العرض مغر، ولكن...

«أنا تعبت يا شهد من الظلام. ولا أريد ارتكاب جرم جديد»

في الصباح حملت سعيد إلى حيث السجل المذكور في نشرة التليفزيون. ظننت أني سأترك لهم بياناته، وربما صورة له كما فعلوا عند دخولنا المعسكر. لكنهم أصروا أن يأخذوه مني. قالوا إنه طالما ليس ابني فالدولة مسئولة عنه. قالوا إنهم يجمعون كل الأطفال التائهين الذين تقل أعمارهم عن السبع سنوات، وسعيد يبدو أصغر من هذا العمر. ترجيتهم أن يتركوه معي، تعهدت بأن أسلمه لهم إن ظهر له أهل. أصروا على موقفهم. قالوا أن الطفل في هذا السن لن يستطيع أن يقدم معلومات كافية تساعدنا على معرفة أهله، ولذلك يتم تجميعهم في مكان واحد لعرضهم على الأسر التي فقدت أطفالها، فهذه هي الطريقة الوحيدة للم الشمل. تماديت في اعتراضي فصار هياجًا وصراخًا، تدخل الجند وجذبوا الطفل من صدري، فنزع في قبضته الصغيرة قطعة من قميصي. دوى صوت يأمر الجنود بالتوقف. كان قائدهم، هو ذاته قائد المعسكر. قابلني بوجه بشوش وتنحى بي جانبًا. أخبرني أن ما أفعله خاطئ وقد يعرضني للعقاب. تقبلت منه كلماته اللائمة، ثم على غير تخطيط -وربما على غير إرادة كذلك- بدأت أحكي:

«لقد ضاجعت شقيقة زوجتي.. فتاة بريئة لا حيلة لها.. تملكتها بقوة الخبز وأجبرتها على الانصياع لإرادتي.. بعدها حملت مني فقررت أن أتزوجها.. ولكي أهدم أية حواجز بيننا، قتلت زوجتي.. هكذا بمنتهى البساطة.. شقيقة زوجتي أخذت بعدها أبنائي الثلاثة وهربت.. فماذا فعلت؟ تماديت في الشر حتى قتلت شابًا من شباب القرية لا ذنب له سوى أنه كان خائفًا مما يحدث.. فقط خائف مثل الملايين منا»

maktabbah.blogspot.com

كان الجسد يرتجف بضغط البكاء المكتوم. أرحت الجسد وأطلقت العنان، فكانت شهقة عالية ودموع منسكبة بعدها. والقائد يتأملني بعين مصدومة، ولسان عاجز.

«أنا شيطان. لمثلي أنا حدث ما حدث.. البحر ثار على شرورنا.. لكن الغريب أنه تركني.. البحر لم يبتلعني.. فربما.. فقط ربما.. كان المراد أن يغسلني.. ربما رضا مات غرقًا في البحر وأنا جزء صغير بقيت منه.. جزء طيب قادر على الطفو والنجاة.. الجزء الذي تعلق بهذا الطفل، فكان لي كقشة أمسكت بها وأخرجتني للشاطئ الآمن. هذا الطفل هو أنا الجديد.. لا يجب أن أفقده»

صمت طويل داهمنا. الرجل كان يحاول وزن الأقوال والمشاعر والواجبات. ولما بدا وكأنما وصل ليقين، قال:

«وماذا إن كان له أهل يبحثون عنه؟»

قلت له:

«أنا لن أمنعه عن أهله. خذوا صورته، ولو تعرف عليه أحد فأنا سأعيده. يجب أن تثق في كلمتي. سأعلمك بعنواني. حتى لو انتقلت لمكان آخر سأبلغ الشرطة بمكاني وبحكايتنا حتى تظل على اتصال بي. وهذا وعد مني»

كنت أتحدث بسرعة محاولا النفاذ من أية ثغرة تقودني إلى قلبه فأقنعه. لما رأيت الهدوء على وجهه، هدأت اندفاعتي، وقلت بصوت أعمق:

«أرجوك»

حسم أمره قبل أن يقول:

«ليكن»

عدت إلى شهد وحكيت لها ما صار. كنت أتحدث بحذر محاولا استشفاف ما يمكن أن تغيره تلك المستجدات في عرضها. لكنها بدت مصممة حين قالت:

«لنفعلها يا رضا»

سألتها:

«حتى وإن ظهر له أهل، وضاع منا مثل من ضاعوا؟»

فقالت:

«بالضبط. مثل من ضاعوا. فما الفارق؟»

عند النهار التالي كنا قد تزوجنا. كنا أول حالة زواج في المدينة بعد الكارثة، فكان الأمر مربكًا وداعيًا للدهشة. الأمر وصل للقائد، فما كان من موظف قادر على التعامل مع الموقف، فلا أوراق لنا، أو سجلات ترشد على حقيقة هويتنا. كائنان جديدان هابطان لتوهما من الجنة. القائد أصدر أوامره أن لا أوراق أو سجلات تقف في وجه سنة الحياة، فالحياة شاءت أن تستمر، ويجب أن يفسح الروتين لها المجال.

كلماته ألهمت الجميع، وحتى أهل المدينة. لذا صحونا في الصباح التالي لزواجنا لنجد أمام

باب البيت هدايا متروكة دون أسماء أو توقيعات. وكأن كل من بالمدينة قرر مشاركتنا ميلاد الحياة. كل منهم ترك لنا ما استطاع الاستغناء عنه، قطعة خبز، أو ثمرة فاكهة، أو رداء زاهي الألوان، أو مقعد خشبي صغير، أو طبق خزفي مزخرف بورد ذهبي. حالة من الاحتفال الصامت -وكأنما هو تواطؤ جمعي للحياة-غلفت بدايتنا الجديدة.

عشنا سنوات معًا. لم تكن الحياة المثالية، لكنها كانت سعيدة. لم نفارق ذلك البيت، ولم يظهر طليقها أو الأبناء. لم يحزننا هذا، طالما أنه في المقابل لم يظهر لسعيد أهل. بقي سعيد أبننا الوحيد. لم تنجب شهد مني. ولم نتساءل أو نبحث وراء الأمر، فقد كان قرارنا الصامت هو الاستسلام للحياة، ولمشيئة الله. كبر سعيد وصار شابًا جميلا. يوم جاءني يخبرني أنه يريد أن يتزوج، شعرت أنه حان الوقت لأن تنسلخ من بيننا حياة جديدة، وتتفرع في اتجاه جديد. يعلم الله إلى أين ستذهب، وإلى أي مساقة ستتمدد. وكنت وقتها طريح عجزي، وشيخوختي. وكانت شهد أكثر مني عنفوانًا وقدرة على الفرح، فأطلقت زغاريد احتبست في أحشائها لسنين. وضحكت حتى دمعت عيناها، وبللت خدي الشاب بملح دموعها. وكانت هذه هي اللحظة التي أعلنت فيها عن الشوق الذي طال حبسه..

«أريد رؤية البحر»

منذ غادرته خائفًا في ذلك اليوم البعيد، قرب المعسكر الخالي، لم أعد له. ظننت طويلا أني كرهته. لكن كلما انقطعت من رزنامة العمر ورقة، انغرزت في قلبي شوقًا له. حتى فاض بي كيل، وأعلنت عن رغبتي، متمنيًا أن أسابق الموت إليه. سعيد وعدني أن يأخذني في الصباح، وطلبت من شهد أن تأتي معنا. اندهشت في البدء، وحاولت التهرب، لكني ألححت عليها، فوافقت.

عند الصباح استأجر سعيد سيارة صغيرة بسائقها، وذهبنا إلى هناك. حيث كانت قرية للصيادين في يوم من الأيام، مكان تملأه الحياة، والصخب، والخطايا. الآن صار ترابًا غافيًا في أحشاء البحر. هبطت من السيارة متكئًا على الزوجة والابن. قطعت خطواتي المتعثرة حتى ملامسة الماء المالح. ابتسمت ونظرت للتي على يميني، وللذي على يساري. وقلت لهما:

«لا شيء محتوم»

ثم رأيته قادمًا يمشي فوق ماء البحر. تتعثر به الأمواج العالية فتتكسر. ويقترب أكثر، فتتمدد قامته حتى تبلغ السحب. ابتسمت له مرحبًا. وأغمضت عيني منتظرًا ضمته الأخيرة الحانية.

***

عدت بعد الموت إلى بطن الحوت. إلى مجلسي عند منتهى السرداب المظلم. مع الزوجة الأولى وقتيلي الشاب. كنا وكأننا لم نغادر مجلسنا، والنار لم تزل مشتعلة بيننا. كانت الحيرة تجثم على صدري وتدفعني لألهث.

«ولكن هذا لم يحدث»

ابتسمت زوجتي وقالت:

«ولكن هذا حدث»

«كيف وأنا لم أغادر مجلسي هذا؟ كيف عشت حياة كاملة حتى الموت وأنا جالس هنا معكما؟»

قال الشاب، وكأنما يسرد علينا ما تعلمه في تلك الجلسة، كطالب علم متحمس، يسعى لإثبات تفوقه:

«الاحتمالات»

أيدته زوجتي:

«لقد تطهرت يا رضا. لا تقاوم. رغمًا عنك تطهرت»

تقدمت من مجلسي حبوًا، ووضعت راحت يدها على موضع قلبي:

«هنا حياتك الجديدة. هنا طهارتك. هنا مولدك»

سألتها متوجسًا:

«وهل يكفي هذا؟»

ابتسمت:

«هذا كل شيء. لا ماضي. لا مستقبل. أنت عبارة عما يوجد في قلبك الآن. هذه حقيقتك. ما الموجود في قلبك الآن يا رضا؟»

كنت أشعر بها في قلبي بالفعل، فلماذا أقاوم؟ الآن أدرك أنها محقة، فأقول:

«توجد حياة جديدة. حياة لشاب يافع»

ابتعدت عني تتأملني عبر مسافة. تلقي علي نظرة شاملة، وتقول:

«هذه إذن هي حقيقتك يا رضا»

نهضت وقد فهمت كل شيء. الآن أعرف من أنا، وما هدفي. ألقيت عليهما آخر النظرات حتى اختفيا. وعدت عبر السرداب المظلم أسعى إلى رفيقي لأبلغهما بما عليهما فعله.

***

(4)

صالح كان مصدومًا. ربما كان غاضبًا لأن رضا عاد. وربما كان غاضبًا لأنه لا يفهم لماذا هو غاضب! أمسك بذراعي ودفعني برفق للوراء، وكأنما يحميني من هجمة متوقعة من رضا. لقد بدأ يتعامل مع رضا وكأنما هو بالفعل الشيطان. وكأنما الحكم صدر بحقه، وأصبحت الشيطنة هي وصمته المثبتة. لم يخف كراهية هذه المرة وهو يسأل رضا:

«لماذا عدت؟»

بدا السؤال سخيفًا بالنسبة لي، ويبدو أنه كذلك بدا لرضا فلم يتحمل عناء إجابته، فقط كرر مقولته:

«إنه دوركما الآن»

سألته:

«ماذا وجدت هناك؟»

«تعلمت أشياء»

وكأنما يراوغني، فأعدت الكرة..

«وماذا تعلمت؟»

ابتسم في وجهي فكانت ابتسامته فتية وجميلة..

«تعلمت ألا شيء محتوم»

صدمتني كلمته. كثيرًا في الأيام الماضية سمعت وتحدثت عن المحتوم، لكني لم أفكر في الأمر بمثل تلك الصراحة والقوة التي خرجت من فمه. كانت كلماته كإعلان هام لي لأغير كل المسارات. صالح صرخ في وجهه بغير مواراة أو احتراس:

«أنت شيطان. ماذا تريد منا؟»

كنت أبتعد، وكان رضا يجيبه:

«لا شياطين هنا، ولا ملائكة. هنا بشر، وخطايا، ورحلة جديدة»

كنت أبتعد، وكان صالح يكشف أكثر عن وجه مجنون..

«كل شيء يفسد بوجودك. معك اختفت الأرض وابتلعنا الحوت. ومعك انقطع الوصال

بيني وبين فاطمة. وربما بسببك وقعت الكارثة. ربما كل الأرض عوقبت بسبب أفعالك»

كنت أبتعد، وكان رضا يلح في القول:

«لا شيء محتوم»

كنت أبتعد، ولم يكن أحد ينتبه لابتعادي، وكان صالح يصرخ:

«توقف عن ترديد هذا القول الأحمق»

صالح هاجم رضا لحظتها. تمرغ الرجلان على الأرض في صراع بقاء محموم. كنت أبتعد وكانت تصلني أصوات لهاثهما، وخوارهما، وحشرجتهما، وما كنت أبالي. أواصل المسير مفتونة بأفكار وقناعات جديدة. وقفت أمام مدخل السرداب أطالع الظلمة. يقينا هذا هو سردابي. تفصلني عن الرحلة خطوة أولى. أتنفس بعمق وثقة. هذه هي خطوتي الأولى، وهذه هي رحلتي تبدأ.

***

بعد مسيرة سادها الظلام والارتياح، وأزمان لم أستطع إحصاءها، بلغت المنتهى. قادتني السرداب لفراغ أحمر اللون. وضوء يرقص رقصة النار المشتعلة. ويرقص معه على الجدران ظل طويل لامرأة جلست أمام النار تنتظرني. كانت تتأملني وتبتسم. فردت ذراعيها تدعوني لعناق ابتهاج بلقائنا، وكأنما تنتظرني منذ قرون. لم أكن أعرفها. لكن هنا لم تكن المعرفة هي العملة المتداولة، وإنما الإيمان. والإيمان هنا له يقين العين والعقل. وكان يقيني أن هذه المرأة هي أمي. هي من ألقتني رضيعة، وتخلت عني. فلماذا أهرول الآن نحو عناقها، وأبكي على صدرها الدافئ؟ لكن هذا ما فعلته! وكانت هي تربت على كتفي وتدعوني للمزيد من البكاء لأغتسل بالدمع. سألتها:

«ما أنا؟»

قالت دون تردد:

«انت البراءة»

سألتها:

«وماذا عن الخطيئة؟»

فأجابتني:

«وما خطيئتك؟»

انسلخت من حضنها وتأملت وجهها. عاودني شعور الكره وأنا أواجهها..

«أنت خطيئتي. أنت يا أمي الخطيئة التي عشت أهرب منها، وأحملها على ظهري، وأسعى مرغمة إليها»

ابتسمت في حزن وتحسست خدي:

«بل إن خطيئتك هي الخوف والكره يا فاطمة»

لم تعجبني كلماتها. لم يعجبني ما شعرت به وكأنه تملص من فعلتها الشنعاء بحقي، فابتعدت عنها. ذهبت إلى الجانب الآخر من النار، وتربعت في مواجهتها. أتأمل عينيها الدامعتين تارة، وأتأمل النار بيننا تارة. الآن عدت من جديد أكرهها كراهيتي للموت. وما عدت أجد حرجًا من المصارحة بما في نفسي..

«بالفعل. أنا أكرهك»

ابتسمت مشفقة:

«ليس هذا ما أعنيه. أنت تكرهين نفسك فاطمة. هذه هي خطيئتك»

صرخت في إصرار:

«بل أنت خطيئتي»

«لا أحد يحمل خطيئة أحد»

أجبتها بمزيد من الصراخ:

«الناس وضعوا خطيئتك على كتفي»

صرخت ليرتج لصراخها المكان:

«وأنت خفت منهم، فكرهت نفسك»

صمت تمامًا هذه المرة، وكأني أعترف لها بالفوز في مسابقة الصراخ. بدا عليها الهدوء، واستعادت ابتسامتها..

«حبيبتي، لست أنا. أنا لست في حياتك، ولم أكن بها يومًا. انظري إلى حياتك. انظري إلى كل ما أهدرتِه. انبذي الخوف، وأحبي الحياة»

كانت دقات قلبي تتسارع. كلماتها أيقظتني على الحقيقة، فنطقت بها:

«حياتي انتهت»

قالت:

«لا شيء ينتهي»

قلت وكأني لم أسمع تعليقها:

«وكيف العودة لشيء ضاع؟»

«لا شيء يضيع»

ابتسمت وحاولت التهكم، لكن صوتي خرج حزينًا بائسًا..

«كما أنه لا شيء محتوم، أليس كذلك؟»

هزت رأسها موافقة على كلماتي بحماس، وكأني أصبت بالفعل عين الحقيقة..

«تطهري من الخوف والكره»

هززت رأسي:

«فات الأوان»

فقالت:

«لا شيء يضيع في القلب يا فاطمة، فلا حياة في القلب يا فاطمة. الحياة ملايين الاحتمالات، وقلبك هو بوصلة الاختيار وطالما القلب لم يزل يدق، فإن كل الاحتمالات لم تزل قائمة»

بدت كلماتها غامضة لي في البدء. لكني مع مرور كل ثانية أكتشف أني أفهمها أكثر وأكثر، حتى باتت حقيقة جلية أمامي.

الآن أفهم ما يجب أن أفعله..

***

كنت هناك في حجرتي الخشبية، في البيت الخشبي المغروس في البحر. يرتجف البيت مع ارتجافة جديدة للأرض. مخيفة ارتجافاته، ومخيفة نبرات الخوف في صوت أمي وهي تناديني من حجرتها:

«فاطمة، أين أنت؟»

أم فاطمة، تلك المرأة الجبارة القوية، صارت منذ أن تبدل الحال بالأرض تخاف مثل كل الناس. وكأنما كشفت تلك الأحداث المريبة عن طبقة إنسانية بداخلها، كانت مختفية تحت تراكمات من قسوة أعوامها الماضية. لكنني في هذه اللحظة كنت أكرهها، وكنت أحبه. أنتظره يقترب من نافذتي ذات ليلة كما وعدني. البيت يرتجف وأنا لا أبالي. أقف في نافذتي المفتوحة عساها تكون تلك هي الليلة الموعودة. الوقت يمضي، ولحظة النهاية تقترب. نهاية رحلتي على هذه الأرض. ربما أنا الوحيدة في هذه الحياة القريبة من الفناء، التي تعلم أن تلك الحياة قريبة من الفناء! لقد أخبرني صديقي الحوت بكل شيء. كشف لي أسرار ما سيحدث، وما هو مكتوب لي. لكنه لن يحدث الآن، فقد توقفت الارتجافات، وهو لم يظهر عند نافذتي. لم أزل أسمع صوته من بعيد يغني، وكأنما يودعني على وعد بلقاء قريب، فأغني معه بنبرات حزينة:

«وهي عند النهاية تنتظر

سيأتي ليحملها من خصرها

نحو البحر وغدره...»

يفاجئني صوت أمي..

«ماذا تقولين؟»

ألتفت إليها فأجدها عند باب حجرتي، وقد استعادت الشجاعة لتنهض من فراشها بعد استقرار الأحوال وانتهاء الهزة الأرضية.

«شيء لا يعنيك!»

أنا أكرهك يا أم فاطمة، ولم أعد أبالي أن أظهر هذا في نظراتي وفي كلماتي. أفكر كثيرًا أن أصارحك بكل ما في نفسي بخطبة عصماء تصلح لكتب التاريخ، طالما أني سأرحل قريبًا وأتركك للموت، أنت وكل هؤلاء الحمقى الذين يروحون ويجيئون على طرقات التراب، في تلك القرية البائسة، يلتهمون جسدي بأعينهم، ويلتهمون روحي بكلماتهم. هم يعرفون أني جزء من خطيئة، فيشتهونني. وأنت تعرفين أني جزء من خطيئة، فتعاقبينني. لكنه وحده، هذا الحوت العظيم، يعرف أني جزء من خطيئة، فيطهرني.

«تحدثي معي بأدب»

كانت تصرخ في وجهي. صرت عجوز يا أم فاطمة، لكن لم يزل في عينيك قوة وبأس. تقدمت مني مسرعة، دفعتني بعيد عن النافذة وأغلقتها.

«هذه النافذة خطر عليك. هذه الحجرة كلها خطر. ستبيتين معي في حجرتي من الآن. بل أن البيت كله خطر علينا. سنرحل»

كانت مرتبكة، قلقة، ولأول مرة أشعر بضعف هذه المرأة. وكأنما وجدت فيها فرصة لأضرب ضربتي. ضربة انتظرت طويلا الفرصة السانحة لتوجيهها. لكن لماذا الآن؟ هل هو وقت للمصارحة؟ ماذا أنتظر منها وأنا أستعد للرحيل؟ لكن إغراء اللحظة كان أقوى مني. ضربت النافذة بقبضتي، فانصاعت مفتوحة على وسعها.

«أنت لن تحكمي علي بعد الآن. هذه النافذة ستبقى مفتوحة. لن أعيش أسيرة قيودك منذ هذه اللحظة. يكفي أعوامًا من القهر والإذلال. لقد تحررت منك. هل تفهمين؟ لقد تحررت منك»

التفتت إلي وفي عينيها نار. واجهتها بنفس العينين. فجأة انطفأت نارها، ومر بعينيها شيء كالخوف. كانت رؤية مفاجئة فارتبكت، واهتز ثباتي.

«عيناك!»

قالتها مغلفة بدهشة تتسع الكون. كانت تتأملني صامتة، مفكرة. لم أتعجل الفهم، أو أحاول دفعها للإفصاح عما بداخلها، فقد بدت لحظتها وكأنما تتلقى رسالة إلهية، وكأنما حجب ما انكشفت أمام عينيها، حتى قررت أن تفصح..

«عيناك لا تشبهان عيني أمك كما كنت أظن. ففي هذه اللحظة اكتشفت أن عينيك هما ذاتهما عيناي!»

قالتها بعاطفة جياشة، ثم انقضت علي تجذبني لحضنها. ضمتني إلى صدرها في عناق مؤلم، وأنا كنت مندهشة، عاجزة عن النطق أو الفهم. لم أجاوب عناقها سوى بالاستسلام، حتى شعرت بارتجافات البكاء في جسدها. لحظتها بسطت كفي على ظهرها مربتة، فتضاعفت شدة بكائها. ربما تلك المرأة تبكي للمرة الأولى منذ أن كانت تطلب حليب أمها رضيعة! لذا كان مشهدًا مهيبًا، ومحزنًا. سرعان ما ارتفعت وتيرته، وتهدج صوتها مرددة:

«أنت تكرهينني.. أنت تكرهينني»

أسندتها حتى حجرتها، وضعتها في فراشها منهارة. انقطع بكاؤها، وترك لها عينين حمراوين، وجسد لم يزل يرتجف. استرخت رأسها فوق الوسادة وأغمضت عينيها. انسحبت مبتعدة، لكن كفها القوي قبض على ذراعي. ودون أن تفتح عينيها قالت:

«سامحيني يا فاطمة. لقد كنت حمقاء. لم أفهم كيف أعبر لك عن حبي، وقت أن كان

خوفي عليك هو المسيطر على عقلي، ويدفعني للجنون»

ثم فتحت عينيها وتأملت وجهي في ضوء الليل الشحيح..

«لقد أحسنت تربيتك يا فتاة. أنت قطعة مني ولم أكن أدري. في الوقت الذي كنت أعتقد أني أخاف منك على نفسك، تجاهلت أن ألاحظ كيف أصبحت فتاة قوية»

تلك عبارة صفتها طويلا في عقلي لأقولها لها بطريقة متشفية متهكمة. لكنها في هذه اللحظة خرجت من فمي حزينة، ممزقة، وكأني أقرها واقفا..

«أنا أحمل خطيئة أمي. لا تنس هذا»

ابتسمت وقالت:

«بل أنت تحملين جمال أمك، وقوتي، وطهارتي. أنت المستقبل الذي لم أحصل عليه يا فاطمة. أنت النسخة الأفضل من كل شيء»

حافظت على ابتسامتها وجسدها يسكن، وتروح في النوم. جلست على الأرض بجوار فراشها مرتبكة. لا أفهم ما يحدث. كيف لم تنتهي مصارحتي وانفجاري بالنهاية المدوية التي طالما مررت بها في خيالاتي؟ كيف انتهت بهزيمتي أمامها؟ وذلك الشعور بداخلي في هذه اللحظة، هل هو -حقًا- حب؟ أنا ما عدت أفهمك يا فاطمة.

maktabbah.blogspot.com

تركتها نائمة وعدت إلى غرفتي. تمددت في سريري شاعرة بثقل الدنيا فوق صدري. نهضت إلى دولابي وأخرجت دفتري من مخبأه وبدأت أكتب ما في عقلي، محاولة فرض اللجام على الأفكار وترويضها. في بداية سطر جديد كتبت: (هذه المرأة.....) ثم توقفت، توقف طويل معجز. لم أدر ماذا أكتب عنها. في رأسي مئات الأفكار المتصارعة. عشرات المسارات الممتدة إلى الجهات الأربع، لكني لا أعرف كيف أكتبها. لا أستطيع الإمساك بطرف خيط، أو تشكيل أول نقطة حبر، وكأنك أصبتني في مقتل يا أم فاطمة. عندها ارتجت الأرض من جديد. هرعت إلى النافذة أتأمل المسافات الممتدة في عمق البحر منتظرة. هذه المرة كانت الارتجاجات أقوى من قدرتي على احتمالها، فكدت أقع أرضًا، وتمسكت بقوائم فراشي. أو ربما أنا فقدت بعض من عزمي وشغفي للقاء، فانهار جزء من تماسك جسدي. لم أكن في حاجة هذه اللحظة سوى أن أوضع أمام الاختبار، وهو ما حدث. هناك من البعيد رأيته يخرج من الماء ويتقدم. لقد حانت اللحظة. هذه هي لحظتي. الحوت يبر بوعده ويأتي ليأخذني، فهل أبر بوعدي وأحمل أمانة إنقاذ البشر؟ كان يتقدم، والأفكار في الرأس تبتعد. صورته صارت تملأ العين، وصوت أمي صار يملأ الأذنين..

«أنت النسخة الأفضل من كل شيء»

فجأة توقفت الارتجاجات. نظرت من النافذة فوجدته مستقر على سطح الماء عند مسافة آمنة، مختبئ في ظلام الليلة، منتظرًا مني خطوة. وكأنها لحظة صفاء تعينني على حسم أمري. مفترق هادئ، يتقاطع عنده طريقان يحملان مشقة، وعلي أن أختار. لم تطل الحيرة كثيرًا. أغلقت النافذة. واندسست في فراشي ونمت هادئة لأول مرة منذ ليال.

في الصباح وجدت أمي محمومة في فراشها ترتجف. شعرت بشفقة مخلوطة بإحساس ذنب، وكأني أنا من أمرضتها. لم أكن معتادة مغادرة البيت وحدي. ولم يسمح لي من القبل بالتسوق، أو حتى شراء احتياجات البيت البسيطة. لكن في هذه اللحظة لم يكن من حل آخر. أخبرتها أني خارجة لأشتري لها طعام ودواء. رفضت، وتمسكت برفضها بقدر ما سمح لها جسدها العليل. لكني أصررت، ورسمت في عيني عناد أسكتها. تغيرت نبرات الصوت وهي تقول:

«أنت حقًا ابنتي، وأنا لن أخاف عليك بعد الآن»

ابتسمت وداعبتها:

«يبدو أنها حقًا نهاية العالم»

خرجت إلى الطرقات شبه الخالية. لم أتوقع ما رأيته، ذلك الخواء، والوحدة في شوارع يغمرها النهار. الخوف ساكن في البيوت يرتجف في قلوب الناس. الخوف ساكن حتى في الجدران، وفي النخيل، وفي تراب الأرض. بلغت السوق فلم أجد سوى القليل لأشتريه. أزواج قليلة من أعين الرجال لاقتني في الطريق بنظرات التفحص والاقتحام. ولسان واحد طالني بمغازلة فجة. الغريب أنه ربط مغازلته بفكرة نهاية العالم، وكأن نهاية العالم سببًا كافيًا لكي أدعه يعبث بي قولا أو فعلا. حاولت تجاهله، لكن بعد الابتعاد خطوتين شعرت أن هذه ليست أنا. لماذا أتجاهله؟ هو قام بما يعتبره دوره بمغازلة فتاة وحيدة في الطريق. تحديدًا تلك الفتاة ابنة الخطيئة. فلماذا أتقاعس أنا عن أداء دوري في معاقبته؟! إنها مجرد مسرحية أدوارها موزعة بعدل، وعلي أن أؤدي فيها دوري. لذا استدرت إليه ملتقطة حجر من حجارة الطريق، وقذفته به فأصاب وجهه ليدميه. نظر إلي مرعوبًا، مصدومًا، غاضبًا ربما. توقعت أن تنهال علي شتائمه أو ضرباته، فصمدت أمامه متحدية نظراته. فاستدار مبتعدًا وهو يكتم جرحه بكفه. في هذه اللحظة كنت أنا أنت يا أم فاطمة. وتلك النظرة في عيني هذا الشاب طالما رأيتها في أعين الرجال، وأنت تصدينهم عني. أتذكر الآن في طفولتي عندما كنت أتمنى أن أصبح مثلك، وأمتلك تلك القوة للدفاع عن نفسي، فلماذا نسيت هذه الأمنية طوال

ما فات من أعوام؟

عدت إلى البيت. أعددت الطعام، ومنحتها الدواء الذي اشتريته، مع بعض من عصير الليمون الدافئ، فاستعادت قدرًا من عافيتها. حكيت لها ما حدث في الشارع، فضحكت كثيرًا، حتى أدمعت عيناها، واحتضنتني. هذه المرة كان حضنًا دافئًا، فتركت نفسي أستمتع به.

مر يومان على هذا الحال. صرت أنا المسئولة عن كل شيء في البيت. هي حاولت كثيرًا الاعتراض، لكن مرضها منعها من بذل أقصى جهد للمقاومة. كذلك أعتقد أنها كانت سعيدة بالأمر في قرارة نفسها، وهي تراني أتحول إلى ابنة شابة محبة، قوية وقادرة على حمل المسئولية. وكنت أنا سعيدة بذلك. ليتك تشاهديني في الطرقات أسير مرفوعة الرأس. أنظر متوعدة إلى أعين الرجال، ويسرني أن أراها تبتعد بعيدًا عن مرمى بصري. وأكاد أنصت لأفكارهم وهي تقول: تلك أم فاطمة جديدة. وفي المساء أنام متعبة نومًا هادئًا. أحيانًا توقظني الارتجافات، ويتجه بصري شوقًا نحو النافذة المغلقة. لكنني لم أفتحها ثانية. والغريب أني لم أسمع غناءه ثانية، وكأنما أعلن يأسه مني. عدت لدفتر مذكراتي، هذه المرة كتبت خاطرة في محبة أمي، وقررت أن أقرأها لها عندما تشفى وتقوم من رقادها. لكني لم أقرأها لها أبدًا. ففي ذلك النهار، عدت من السوق ووجدت امرأة أنيقة تشاركها مجلسها على الفراش. لم أسأل عن هويتها. تذكرتها، ذات يوم بعيد كانت هنا. يومها كان وجهها محمل بكدمات وخدوش، وملابسها كانت ممزقة، لكنها ذات الملامح. أم فاطمة قالت:

«تقدمي يا فاطمة وسلمي على أمك»

ربما منذ أيام كان موقف كهذا قد يدفعني للهروب والاختفاء بحجرتي، لكني اليوم واجهتها..

«ماذا تفعل هذه المرأة هنا؟»

بشكل فوري، وكأنما تنتظر مني كلمة تضغط زنادها، سالت دموع صامتة من المرأة. في حين قالت أمي:

«أنا هاتفتها لتحضر»

كانت دهشتي تسبق غضبي خطوات وأنا أتساءل:

«لماذا؟»

نهضت المرأة، وتحركت مغادرة الحجرة، وهي تقول:

«سأدعكما وحدكما»

في طريق خروجها، وضعت يدها على كتفي، وفي نظراتها شوق. انتفضت مفلتة يدها، فغادرت وهي تسكب المزيد من الدموع.

«ما الذي تخططين له؟»

سألتها، فأجابتني:

«يجب أن تغادري هذا المكان، فهو لم يعد آمنًا. البحر سيبتلع كل شيء»

تعجبت أنها تعلم بأمر كهذا، فأنا لم أخبرها بما أسره إلي الحوت.

«كيف تعلمين؟»

«فقط أعلم»

قلت لها كاذبة:

«هذا تخريف»

ثم تابعت صادقة:

«وحتى لو حدث، لماذا يفترض أن أعود للمرأة التي تخلت عني؟»

أجابتني وقد بدأت الدموع تضيء عينيها:

«لأن ليس لك سواها»

«وأنت؟»

«أنا لن أحيا أكثر من هذا يا فاطمة. إن لم يقتلني البحر، فسيقتلني العمر»

«إن جاء البحر، فليقتلنا معًا»

فجأة قفزت من فراشها بعنفوان، وكأنما قوة خفية تلبستها. أمسكت جانبي رأسي وضغطت عليهما، وأظهرت في عينيها شياطين الغضب، وهي تصرخ:

«أنا لم أمنحك عمرًا ومحبة، لتهدريهما بعنادك. أنا لن أموت إلا وقد اطمأننت على سلامتك»

استدعيت شياطيني بدوري، يلوحون لها من نظراتي ومن نبرات صوتي الهادرة..

«أنت لا تفهمين. لا مكان آمن. العالم كله سينتهي»

«هي مجرد احتمالات أيها الحمقاء. أنت لن تبني مستقبلك بناء على كلمات حوت عجوز»

صدمتني كلماتها، فأطفأت الحيرة غضبي، وعادت شياطيني إلى جحورها..

«أنت تعلمين بالفعل»

هدأت بدورها، مستسلمة لضرورة المصارحة..

«لست وحدك من يسمع غنائه. أنا كذلك أسمعه، وأفهمه. وأنصت لحديثكما في الليالي. وأعرف ما وعدك به. لكن ما يقوله مجرد نسخة واحدة من الحكاية. وأية حكاية لها نسخ عديدة. والحياة مثل الحكايات يا فاطمة. وأنت من تكتبين نسختك من الحياة»

كنت أحاول ابتلاع فلسفتها، فبانت الحيرة في عيني، لتغريها بمدخل للتسلل لقناعاتي، فواصلت بصوت مزقته مخاوفها:

«أرجوك تعقلي، واكتبي لنفسك نسخة مبهجة من الحياة»

«لا حياة ليه سوى معك، أنت أمي»

«وهي كذلك. لقد عادت قبل سنوات تريدك، وتعلن توبتها. لكن كبريائي أعماني عن تصديقها، ومنعني من منحها الفرصة، وهو ما لا يحق لي. من أنا لأكتب حكايات الآخرين؟ أمك كتبت نسختها من الحكاية، واختارتك فيها. اليوم أنا أصدقها، وأعلم إنها تريدك حقًا. ولهذا جاءت مهرولة بمجرد أن هاتفتها»

كان منطقها قويًا، وشعورها قويًا، جرفني فلم أستطع أن أتخذ قرارات، أو أتمسك بشعور خاص بي، تماهيت معها، فبكيت..

«إذن، تأتين معنا»

ابتسمت من وراء دموعها..

«أمك تسكن بعيدًا، وأنا لا أريد مفارقة بلدتي يا فاطمة. أريد أن أموت هنا. هذه نسختي من الحكاية، فلا تكوني حمقاء مثلي، وتفسديها بشخبطاتك الطفولية»

ابتسمت معجبة بتشبيهها، واحتضنتها باكية.

بعد ساعة كنت أترك حضنها ورائي، والبيوت الخشبية ورائي، والبحر، والحوت، والأعوام، كلها ورائي. محمولة نحو المجهول، في سيارة فارهة يقودها شاب لا أعرفه، هاتفته المرأة

فأتى ليأخذنا من أمام البيت. أغلق حقيبة سيارته على حقيبتي وكتبي وذكرياتي، وانطلقنا.

طوال الطريق لم أتكلم. كنت أتأمل ما حولي مبهورة برحلة خروج للبعيد تمنيتها طويلا. لكن لم أتمنى أن تحدث برفقتها. وهي طوال الطريق لم تصمت. حدثتني عن أحلام ووعود منتظرة، وثراء، وحياة رغدة. آمنت بكلماتها عندما دخلنا المدينة الكبيرة، وصعدنا إلى شقة واسعة فاخرة، وقالت لي:

«هذه شقتي. وبيتك منذ هذه اللحظة»

كانت أول لحظة انفراد بيننا، فلم أستطع أن أكتم مرارتي أكثر. فقلت لها:

«يبدو أن البغاء مريح حقًا»

لم تتعجل في الرد، ولا في إبداء أي رد فعل. بدت في هذه اللحظة أكثر قوة مما كانت عليه في حجرة خالتها. جلست على مقعد وثير ووضعت ساقًا على ساق. أشعلت سيجارة، ثم قالت:

«أنا لا أملك أيًا من أموال البغاء. فالحق أنها كانت أموال سريعة التبخر ما ترينه الآن هي أموال زوجي الراحل»

كان الأمر مفاجئًا. فاستجبت لقوة حضور المفاجأة وجلست أمامها مستفهمة:

«أنت تزوجتِ؟»

هزت رأسها، وبانت في عينيها كآبة..

«غريب كان هذا الرجل. عندما تعرفته كان يائسًا، يسعى للموت، أو ما هو أسوأ. يبدو كشيطان، لكنه ليس كذلك. هو مجرد رجل جريح يصارع أشباحه. كان يخاف النوم. مستعد لفعل أي شيء لقضاء ليلة تلو الأخرى دون نوم. تفهمته، أخذته بين ذراعي وغنيت له كطفل حتى نام. بعدها استيقظ سعيدًا، يطلب مني الزواج. لم آخذه على محمل الجد. لكنه ظل عامًا كاملا يطاردني برغبته تلك. هو يعرفني، يعرف حياتي، مهنتي، يعرف كل شيء عنك. لكنه لا يبالي. ذات يوم قال لي أنه اكتشف معي أن الماضي والمستقبل لا وجود لهما، نحن فقط هنا والآن. وحياتنا هي مجرد اختيار ما سنفعله هنا والآن. ولهذا فحياتنا لم تبدأ بعد، وما فات كان حياة أخرى لأشخاص آخرين يشبهوننا. تسللت كلماته إلى روحي فوافقت. تزوجته، وسافرت إلى خالتي أطلبك، فكان ما تعرفينه. بعد موته حاولت كثيرًا أن أتصل بخالتي، وأن أرسل إليها الوسطاء، لكن دون جدوى»

انسلت من فوق مقعدها للأرض. تقدمت نحوي تحبو على ركبتيها، أراحت رأسها على

حجري..

«سامحيني يا ابنتي»

كنت مرتجة، أشعر أن الحياة وضعت في طريقي الكثير من الفلسفة في يوم واحد. لكن كل كلمة وكل فكرة فيها تدعو للتأمل حقًا، فهل أنا أهل للفهم. ربت على كتفها، وقلت معلنة الفهم:

«لا داعي للاعتذار، فمن تخلت عني لم تكن أنت. أنت هنا والآن»

ابتسمت حزينة، وهزت رأسها. ورددت مؤيدة:

«هنا والآن»

في الليلة التالية صحوت من نومي على صوت غنائه. نهضت فزعة أتساءل كيف بلغني والبحر على مسافة يوم؟ لكني اكتشفت أني كنت أحلم. غادرت فراشي واتجهت إلى حجرتها. أيقظتها لأعلن لها عن مخاوفي، فقالت أنها ستجري عند الصباح اتصالا للاطمئنان على أمي. لكن الصباح لم يحمل لنا أية طمأنينة، وإنما خبر ابتلاع البحر للقرية. لا أحد يعرف شيئًا عما صار لساكني القرية. يقولون أن معظمهم ابتلعه البحر، والقليلون نجوا، وحملوا إلى معسكرات المشردين. بكيت ورجوتها أن نذهب للمعسكرات تلك بحثًا عن أمي. لكنها رفضت. أظهرت وجهًا قويًا في هذه اللحظة وهي تقول أن لا داعي للموت من أجل من اختار الموت. ثرت عليها وشتمتها، لكنها تحملتني صامتة. عند الظهيرة أخبرتني أننا سنغادر قريبًا. البحر لن يتوقف، ويجب أن ننزح إلى المزيد من البعيد.

سافرنا كثيرًا. قضينا أسابيع في مطاردة خائفة هربًا من الموت. بلغنا الصحراء والجبال العالية. هي كانت تملك المال الذي يفتح أمامها كل الطرق، فما كانت تبالي. لأجلي هاتفت مسئولًا كبيرًا في الأمن، كان صديقًا لزوجها، ومنحته اسم أمي ليبحث عنها بين سكان المعسكرات. وعدها الرجل بفعل ما يلزم ومعاودة الاتصال. لكنه لم يتصل بعدها أبدًا.

كنا نسكن مع بعض الأثرياء في مبنى فاخر فوق تل مرتفع، عندما جاءنا النبأ بانحسار البحر، واقتراب الحياة من استعادة عافيتها وهدوئها. كان خبرًا سعيدًا. جرى في الليل احتفالا صاخبًا في المسكن. ظهرت أضواء، وموسيقى، وزجاجات خمر، في نفس الأماكن التي كان السكان يشغلونها بالصلوات، والابتهالات إلى الله برفع البلاء. هي أخذتني إلى غرفتنا، حبستنا بداخلها، وأغلقت بابها بالمفتاح. ابتسمت في وجهي مطمئنة..

«ستكون ليلة طويلة. ونحن لا نعرف إلى أين سيذهب الخمر بعقول الرجال هنا»

وسعيدة. أشعر بصفاء داخلي، وكأنما ولدت الآن. لا ماضي، لا مستقبل. نظرت إليها، فقابلتني بابتسامة مضيئة. نهضت إليها، وألقيت نفسي بين ذراعيها. بكينا معًا لفترة، قبل أن تدفعني الأفكار للتماسك، لأسألها:

«وماذا الآن؟»

«الآن أنت تعرفين من أنت حقًا. الآن أنت نقية، لا كره، ولا خوف. الآن أنت جاهزة لأداء مهمتك»

«إذن فقد انتهى العالم حقًا؟»

اتسعت ابتسامتها..

«لا شيء اسمه العالم بعد. هنا والآن يا فاطمة. فقط هنا والآن»

سلمتني لعاصفة مفاجئة من حيرة. ماذا يحدث هنا؟ وماذا لي الآن؟ ألم يحن وقت الإشارة أيها الحوت العظيم. ربتت على خدي، ثم قبلته، فكانت إشارة بانتهائنا. نهضت ملقية عليها آخر النظرات، ثم استدرت مواجهة ظلام السرداب، وشققته عائدة.

رحلة العودة كانت أقصر من رحلة الذهاب. وفي نهايتها وجدت الضوء في بطن الحوت الفسيح. واجهتني نظرات الدهشة من عيني رضا الجالس على الأرض أمام نار مشتعلة ينظر للبعيد وكأنما ينتظر حدوث شيء ما. استحالت دهشته لفورها لشغف وتطلع وهو يسألني:

«ماذا وجدت؟»

جلست أمامه، وأجبته كما أجابني من قبل:

«تعلمت أشياء»

ابتسم فأشرق وجهه. ولمرة جديدة أنتبه لتغير ما صار بملامحه. هذه المرة فهمت ما يحدث، فقد كان وكأنما يزداد شبابًا. تجاعيد الوجه تبهت، ولون الشعر يستعيد سواده. ابتسمت له مشجعة، ورأسي يشير إلى النار..

«لقد فعلتها»

ابتسم فخورًا..

«لا شيء مستحيل»

سألته بعد جولة للبصر في أرجاء المكان:

قطعت المسافات حتى المركب الصغير المتهالك. صالح كان هناك ممدداً ينظر إلى الفراغ. يحرص ـ كما بدا لي ـ على إخفاء نفسه عن العيون. عندما رآني واجهني بنظرة غضب. جلست أمامه، فبادرني متهكماً:

«كيف كانت رحلتك؟»

«رائعة. ليتك تخوض رحلتك»

اعتدل في جلسته، وأطلق العنان لمشاعره..

«أنت تركتني واتبعتِ هذا الشيطان. أنت سقطت في غوايته»

«الأمر ليس كذلك. أنت لن تفهم حتى تجرب»

هز رأسه أسفًا، وقال:

«كنت أظن إيمانك أقوى»

أجبته:

«الآن أنا إيماني أقوى، فماذا عنك؟»

ابتسم ساخرًا..

«عن أي إيمان تتحدثين؟ حقيقة واحدة عليك أن تؤمني بها، وهي حقيقة الدور الذي علينا لعبه»

أشعرتني كلماته بضغط على عقلي وروحي. لكني كنت قوية الآن، وقادرة على مصارعته لوقت أطول..

«أنا لا أؤمن الآن بأية حقائق. نحن في مرحلة إعداد كما أظن، وعلينا انتظار أوامره. فقط عليك أن تستعد»

ضرب كفًا بكف..

«لقد ملأ عقلك بغوايته»

تماديت في جداله:

«أنت بنفسك تساءلت لماذا نحن ثلاثة. وهو سؤال مهم، وعلينا إيجاد إجابته أولا قبل الحديث عن الحقائق»

صمت وبدا في عينيه غضبًا. كانت نظراته تسكب نارًا، وصوته محمل بلهيب المقت، وهو يقول:

«نحن ثلاثة لأنه هو الشيطان. لقد أخبرتك بهذا من قبل»

«وأنا لم أعلن اقتناعي بهذا»

أشاح وجهه كطفل عنيد، وقال:

«جيد. دعينا ننتظر الأوامر إذن. وحتى هذا الحين، لا تطلبي مني أي شيء، فأنا لن أفعل أي شيء»

كرهته لحظتها، ونهضت مبتعدة.

عندما حدثت رضا بما حدث، قال لي وعيناه لا تفارقان ناره:

«لا تبالي به. المراد سيتحقق، وإن كان ثمة مخطط للحوت كما تظنين، فلن يقف في طريقه عناد هذا الطفل الكبير»

كل منهما يتمسك بطرفه من الحبل، ويواصل الجذب، فلماذا أشعر أني مربوطة من عنقي في منتصف الحبل؟! لماذا أشعر أني ممزقة بينهما؟ ربما مخططات الحوت مجرد وهم في خيالي كما يقول رضا. وربما مخططاته لي لا تشملهما من الأساس. لأحاول أن أهدأ -فقط إن استطعت أن أهدأ- وأنتظر.

مرت الأيام بطيئة كئيبة، وأنا لم أزل أنتظر. رضا مشغول بإطعام ناره ورعايتها، وأنا لم أزل أنتظر. صالح متقوقع في مخبأه، أذهب له بالطعام المشوي على نار رضا، فيأكله دون شكر، وأنا لم أزل أنتظر. كلاهما يبدوان وكأنما يمتلكان كل الزمن، وكأنما الماضي والمستقبل لهما. فلماذا أبدو أنا متعجلة، متلهفة؟ ربما لأني تعلمت ألا شيء لي غير هنا والآن. وفي هذه اللحظة أنا لا أشعر سوى بالفراغ، فراغ الزمان وفراغ المكان. وكأنما فقدت (هنا والآن) خاصتي. أرجوك أيها الحوت العظيم، تعجل بأوامرك، إن كنت تحمل لي بالفعل مخططًا.

كنت أنام كثيرًا. رتابة الزمن لم تتح لي سوى النوم مهربًا. لم أعد أتبادل مع رفيقيّ أكثر من كلمات روتينية طوال اليوم، وكأنما فقدنا أية قواسم مشتركة بيننا. لفترة فكرت أن أعود إلى سردابي، فربما وجدت أمي لم تزل تنتظرني. لكن يقيني بأن رحلتي انتهت يقيدني، فأتمسك بالسبيل الوحيد المتاح، الانتظار. والانتظار لا يترك لي فعلا سوى النوم، ثم المزيد من النوم. حتى استيقظت ذات مرة لأجد صالح واقف فوق رأسي في مخدعي. أجفلت منه ومن وقوفه الصامت المراقب. سألته:

«ماذا تفعل هنا؟»

فجلس أمامي، متخطيًا مسافات الحياء، يبتسم بسعادة ويقول:

«لقد جاءتني، رأيتها في منامي»

«ما هي؟»

اتسعت ابتسامته..

«الإشارة. لقد منحني الحوت الإشارة. لقد كنت محقة، كان علينا انتظار إشارته، وها قد جاءتني»

شعرت بتوجس، أبديته في كلماتي:

«ولماذا لم يعطني إشارة بدوري؟»

ابتسم مستهينًا بكلماتي..

«ربما لأنني الرجل. أو أي شيء آخر. كيف لي أن أعرف منطق الحيتان الضخمة. المهم أننا وكلنا بالمهمة، وعلينا تنفيذها»

مد يده إلى خصري بشكل مفاجئ، فدفعته ونهضت واقفة.

«ماذا تفعل؟»

نهض واقفًا مبديًا غضبًا فاق غضبي..

«بل ماذا تفعلين أنت؟ ألم تكوني في انتظار الإشارة؟ ها هي قد جاءتنا. فما حجتك الآن؟»

صرخت في وجهه:

«أنا لا أتحجج. أنا لن أفعل أي شيء دون أن يأتني أمر صريح»

صرخ بدوره:

«ولماذا لم تنتظري أن تأتك إشارة لخوض السرداب؟ واكتفيت بكلمات ذلك الشيطان لتؤمنين؟»

هز رأسه أسفًا، وقال بصوت أهدأ:

«أنت تنطقين بالكفر الآن. لقد ملأك سمومًا»

ساد الصمت بيننا للحظات، وبدا أنه سيتراجع، ويترك المكان. لكنه عاد يواجهني بنظراته ويقول:

«ربما أنت بحاجة لأن أطهرك»

قالها وهجم علي. دار الحدث بسرعة، فلم أدر تفاصيل ما يقع، فقط أعرف بشكل عام أني سقطت أرضًا، وهو كان رابض فوقي. كان يفعل شيئًا ما لم أدركه. يعبث بمواضع في جسدي لا أشعر بها. كنت كالمتفرج العاجز، بسبب سرعة وغرابة ما يحدث. وعندما استعدت ارتباطي بالواقع، دفعته وصرخت. لكنه كان قويًا وثقيلا، ومصممًا على المضي فيما يفعله. واصلت صراخي حتى حضر رضا. جذبه من فوقي وضربه. لكن صالح كان مجنونًا لحظتها، خارج عن السيطرة تمامًا. رد الضربة لرضا بواحدة أقوى منها، فوقع رضا أرضًا. كانت لحظة انفلت تركيزه بعيدًا عني، فمددت يدي مسرعة أنزع - بقبضة قوية - قطعة خشب من ألواح المركب، وضربته بها على رأسه بأقوى ما استطعت، فانهار أرضًا. أمسك رأسه متألمًا. يتقلب على الأرض بين يقظة وغياب وعي. يطلق أنات خافتة. نهض رضا. جذبني قائلا:

«لنخرج من هنا»

خرجنا من المركب، وابتعدنا مسرعين، وكأنما نتوقع مطاردة من صالح. وقفت ألهث، وسرعان ما تحول اللهاث لبكاء، كنت أشعر لحظتها بشفقة على نفسي. ربما خائفة بقدر ما، وأشعر في أعماقي بخواء بارد، لا أدري له سببًا. رضا مد يده يربت كتفي. ربما بدوافع أبوية. لكن في تلك اللحظة تأملت وجهه فأجفلت منه، كان يزداد شبابًا بالفعل. الأمر ليس وهمًا كما كنت أحاول إقناع نفسي. الآن يبدو أمامي واضحًا بصورة وقحة، هذا ليس رضا الذي التهمه الحوت. صالح خرج من المركب. تقدم نحونا مترنحًا. يمسك رأسه والدماء تسيل إلى رقبته. عيناه مشتعلة بالغضب. قال:

«من تظنين نفسك؟ أنت مجرد ابنة زنا. أنت من الخطيئة وإليها. هل تفهمين؟ منها وإليها»

عندها ارتج الحوت بشكل لم يحدث من قبل. هوينا على الأرض. حاولنا التماسك، فتعالى في المكان صوت هادر مزعج، جعلنا نصم آذاننا بأيادينا. بلغ الصوت ذروة غير محتملة، فصرخت. فجأة توقف كل شيء كما بدأ. صالح نهض وفي عينيه خوف. نظر إلينا وكأنما نحن الموت، ثم ركض مبتعدًا نحو السراديب المظلمة. واختفى في الظلام. نظرت إلى رضا متسائلة:

«ما كان هذا؟»

ابتسم مطمئنًا، وقال:

«الغضب»

اعتدلت في جلستي على الأرض. تأملت وجه رضا، فوجدت أفكارًا جديدة تتجمع في عقلي، لقد كان صالح محقًا. ربما نحن بالفعل أبوي البشر الجديدين، وثالثنا الشيطان. لكن ما فاته، أن رضا ليس هو الشيطان. شعرت بارتباك وخوف. نهضت عن الأرض، قلت له وأنا أبتعد:

«سأمكث في قاربي حتى أفهم ما يحدث»

***

(5)

صالح اختفى في سردابه ولم يعد، وفاطمة باتت تقضي كل الوقت في قاربها، وطعامها أتركه لها عند مدخل مخدعها وأستدير عائدًا. لم يعد لي من أحد لأحدثه سواك. وأنا لا أعرف حتى من أنت. ولكني أعرف أنك موجود. ولذلك سأحدثك.

بدأ الجنون في تلك اللحظة التي غمرت فيها المياه بطن الحوت تحمل رزق اليوم. كنت أنحني لالتقط بأصابع سريعة بعض الأسماك الصغيرة والجمبري، عندما رأيته فوق صفحة الماء المتسرسب بين قدمي. كان يبدو كانعكاس وجهي على سطح الماء، لكنه في الحقيقة كان هو، سعيد. ابني الذي تبنيته في حياة كانت، أو ربما ستكون، أو لن تكون أبدًا. لا أعرف، ولن أعرف. لكنه موجود الآن في ملامحي. كانت دهشتي عظيمة، من أنا؟ وأين ذهب رضا؟ نظرت إلى كفي. تحسست وجهي. تأملت شعر ذراعي وساقي. إنها حقيقة، لقد صرت شابًا. شابًا يحمل ذات ملامح سعيد الوسيمة، أنت تعرف كم كان سعيد وسيمًا.

كان علي أن أتأكد. انطلقت إلى مركب فاطمة ونادیتها من بعد. كانت المرة الأولى التي نتحدث فيها منذ اختفاء صالح. ظهرت على باب مخدعها، ونظرت نحوي مستفهمة، فقلت:

«هل أصبحت شابًا؟»

أبدت عيناها دهشة، وقالت:

«كنت أظنك تعرف»

كان ردًا موجزًا، ولكنه كفاني. ابتعدت عنها محملا بأفكاري وهواجسي. كنت أفكر في معنى ما يحدث. لماذا أنا؟ وما الذي ينتظرني؟ في هذه اللحظة تملك مني إدراك أني أتحول إلى دمية في يد شيء ما. أنت تعرف ذلك الإحساس، وكأنك لا تمسك في شيء، أو تسيطر على شيء. أنت فقط منجرف في تيار شديد بارد. كان ذلك الإدراك هو الذي أشعل جنوني، وجعل الفكرة تتضخم في عقلي رويدًا رويدًا حتى أحكمت خناقها على عنقي، وصارت دافعًا أخيرًا لحياتي، يجب أن أغادر بطن الحوت. بالتأكيد هناك فجوات وسراديب ومنافذ أخرى حولنا لم نكتشفها بعد. سأجول في كل المناطق المظلمة في بطن الحوت مستكشفًا. لن أدع سردابًا أو قناة أو تجويف دون أن أخوضه. يجب أن أصل إلى فم الحوت لأبحث عن طريق للخارج. عدت إلى فاطمة. وقفت على ذات المسافة من قاربها، ونادیتها. أطلت علي مستفهمة، فأخبرتها بما انتويت، وسألتها إن كانت ستخرج معي أم ستنتظر عودة صالح. طالعتني كمجنون، وهي تقول:

«أنا لن أفعل شيء دون أن يأمر به الحوت. أنت رأيت كيف هو غضبه»

لم أعلق على كلماتها، ولم تخفف من إحكام قبضة الفكرة على عقلي. بعدها بدأت رحلة البحث. كنت كل يوم أزور منطقة جديدة عند أطراف بطن الحوت. رحلات شاقة عدت منها كلها بالخيبة، حتى وجدته. وكأنما كانت تلك الفكرة، وهذه الرحلات، مجرد دافع وهمي لكي أجده. وكأن هذا هو هدفي من الأساس دون أن أدري. كان مختبئًا في الظلام عند بوابات السراديب. وكنت أظنه قد خاض رحلته إلى سردابه، لكنه لم يفعل. كان صالح منكمشًا عند الظلام. لا يظهر منه سوى لمعان عينيه. سألته، ولم تكن الصورة قد اكتملت في ذهني وقتها:

«متى عدت؟»

قال:

«أنا لم أذهب قط. أنا مختبئ هنا منذ أن غادرتكما»

شعرت بشيء من شفقة برغم كراهيتي له..

«لماذا؟»

قال بصوت مرتعش:

«أنتما شيطانان. الحوت وعدني أنه سيقضي عليكما، وسأرث بطنه وحدي»

قالها وضحك ضحكة قصيرة، دعمت شكوكي في حقيقة قواه العقلية.

«نحن لسنا شيطانين. أنت من ارتكبت خطيئة»

تعالت ضحكته وجلجلت في المكان، قبل أن يصرخ:

«أنا؟!! انظر لما فعلتماه بي»

عندها خرج من ظلمته إلى موضع الضوء، فرأيت وجهه. كانت تملأه مساحات سوداء صغيرة متناثرة. مساحات غائرة في الجلد مثل ثقوب لا قاع لها. كان يتحسسها، فتنغرز أصابعه بداخلها..

«أنا أتلاشى. وخطاياكما هي السبب. أنت قاتل. وهي ابنة زنا»

قلت له محتدًا:

«وماذا عن خطاياك؟ اذهب إلى سردابك وواجهها. تطهر مثلما فعلت أنا»

قال بغضب:

«أنا بلا خطايا»

ثم تعالى صوته إلى حدود الصراخ:

«ابتعدا عني. لا تقربان مني حتى يقضي عليكما الحوت. ابتعد، ابتعد»

بحثت عن كلمات، فخذلني العقل. استدرت مبتعدًا، وهو يشيعني بصراخه:

«ستموتان. ستقضي عليكما خطاياكما»

عندها توقفت، كان ذلك الصوت يهمس في أذني بكلمات. لم أفهم في البدء ما يحدث فارتبكت، ثم أدركت أن حكاية تتجمع تفاصيلها في عقلي. راوٍ ما -ربما يكون أنت- يهمس لي بحكايته. استدرت إليه من جديد. ابتسمت في وجهه، وقلت:

«الآن أنا أعرف كل شيء»

توجس، وقال:

«ماذا تعرف؟»

قلت له:

«حكايتك. إنه يحكيها لي الآن»

***

حكاية حقيقية عن رجل البحار..

أتذكر فاطمة يا صالح؟ أتذكر حقًا ما حدث، وليست تلك الحكاية الخرافية التي حكيتها من قبل، لاعبًا دور مزيف، لمسكين مطعون القلب؟ فاطمة لم تتركك لأنها ملت الانتظار، أو لأنك لم تكن الزوج المنتظر بمقاييس ظل الرجل! فاطمة تركتك بعد عام من خطبتكما. هل تذكر؟ الأمر لم يكن متعلق بموروثاتها الريفية، وإنما بمكتسباتها الغربية، عندما دخلت بيتك وعرفت بتاريخك العائلي السري مع متلازمة داون. معلومة جانبية أخفيتها عنها لاعتقادك بعدم أهميتها. لكن أمك أفشتها في حوار مغلف بسلامة نية، أو «سذاجة» كما قلت لها معاتبًا. الآن فاطمة تعرف أن في عائلتكم أكثر من حالة لهذا المرض الوراثي. والآن أنت تعرف أنها تفكر في الأمر، وربما تعيد النظر. الآن أنت تتحدث معها بلغة الموروثات الثقافية التي كنت تنتقدها قبلا، أنت من تحدثها عن تسليم الأمر لله، والتوكل عليه. وهي تحدثك بما تعلمته في الخارج، عن العلم والتخطيط وضرورة تدبر كل خطوة في حياتك.

maktabbah.blogspot.com

تهاتفك ذات نهار وتخبرك أنها ستذهب معك عند صديقة لها في معمل تحاليل شهير، لتقوم بإجراء فحوصات جينية لتطمئن أن المرض لا يسكن الجينات التي ستنقلها مع نطفاتك إلى رحمها. تحاول تهوين الأمر، وربما تحاول التسويف قليلا، لكنك لا تقو على الاعتراض الواضح خشية فقدها، فتذهب معها في النهاية مضطرًا. يسحبون من دمك عينة لفحصها، ويأخذون منك سائلك لفحصه، من باب الاطمئنان الشامل كما أقنعوك. لتكون مفاجأتك الصغيرة أن دمك لا مشكلة فيه، لكن سائلك هو الذي يحمل مصيبتك، أو على وجه الدقة، لا يحمل أي شيء. سائل خال من أية حيوانات منوية. تفكر ساخرًا أن هذا أمر جيد، فهو يعني أن أولادك لن يرثوا المرض، لأنهم لن يوجدوا في الحياة من الأصل! تذهب لفاطمة بنتيجة تحليل جيناتك فخورًا. تفاجئك بسؤالك عن التحليل الآخر. تخبرها أنه مجرد تحليل روتيني لا غبار عليه، فلماذا تهتم به. تقسم لها أن التحليل جيد، وخصوبتك طبيعية. لكنها تضربك ضربة قوية يا صالح، ضربة لم تتوقعها، ولم تر بعينيك مقدماتها. تتصل فاطمة بالمعمل وتحصل من صديقتها على نتيجة تحليل الخصوبة وتعرف الحقيقة. مشكلة كبرى وقعت بينكما. ليس بسبب عدم قدرتك على الإنجاب، وإنما بسبب كذبك عليها. نزعت دبلتك من إصبعها، وأبقيتها في جيبك لأكثر من شهر. شهر من الزيارات، والمكالمات، ووساطة الوسطاء، لتقنعها أن نيتك كانت خيرًا، وأنك فعلت هذا لتمسكك بها، ولثقتك بأن حالتك لها علاج. في النهاية تلين رأسها، ويستعيد إصبعها دبلتك، ولكنها معلقة بشرط حاسم، ألا زواج قبل تمام شفائك.

قطعت مع الطب رحلة طويلة يا صالح. تشبع جسدك بكل أنواع العقاقير. أجريت فحوصات لكل ملليمتر من جسدك تقريبًا. حتى خصيتك انتزعوا منها جزء لفحصه. والنتيجة

دائمًا هي الخيبة. يحدثونك عن شيء اسمه الخلل الوظيفي الجيني للخصية، وأنه أمر لا علاج له. فلا تفهم من كلماتهم سوى أنها مصيبة أخرى ورثتها عن أجدادك. تسمع كلمات المواساة، وتأكيدات أن الطب تطور، وهناك عمليات حديثة تمكنك من الإنجاب، لكنهم يتحدثون عن مبالغ مالية خرافية. في النهاية قررت الاستسلام، وترك القرار في يد فاطمة، إن كانت تعتقد أن حبكما أقوى من حلم الذرية أم لا. لكنك تعرف أن حبكما لم يعد بتلك القوة منذ واقعة كذبك عليها، ولهذا لم تستغرب قرارها، وتلقيت الأمر ببساطة وأنت تقلب دبلتها في راحة يدك، وتلقي عليها نظرة أخيرة.

كان عليك بعدها يا صالح أن تتعامل مع كآبة الأم المصدومة في ابنها. رائحة الحسرة تملأ بيتكم. أمك فقدت الأمل في رؤية حفيد يسعى نحوها. فأكل منها الحزن كثيرًا من قوة، وصحة، وسنوات شاختها دفعة واحدة، وكأنما تحطم آخر أمل لها في الحياة، وفقدت إرادة العيش ذاتها. أنت كذلك ضربتك الكآبة لفترات. أنت في النهاية مجرد بشر. رجل يريد ممارسة حياة طبيعية يتقاسمها مع امرأة. تريد الاستقرار، والهدوء، والأهم إنك تريد الجنس، وهو شيء لا يعيبك. وهو تحديدًا أكثر شيء يؤلمك عندما تفكر أنك لن تتزوج حتى لا تظلم معك أية فتاة وتحرمها من الأمومة. تتلقى بلا مبالاة اقتراح باهت من أمك بأن هناك في العالم الخارجي مئات الفتيات تطلقن من أزواجهن بسبب عقمهن، فلربما وجدت بينهن من تناسبك. كلمات قيلت على استحياء مرة، فتجاهلتها يا صالح، فلم تتكرر من جديد. بعدها قلت لأمك كاذبًا أن الطبيب أخبرك أن هناك دواء جديد مضمون نجاحه لمثل حالتك، لكن الأمر سيأخذ وقتًا. وربما لم تعد فكرة سيئة أن تبحث لنفسك عن عروس من الآن. تحمست أمك ووضعت بين يديك بعد أيام طابورًا طويلا من فتيات جميلات. انتقيت منهن رباب، وأوعزت لأمك أن لا داعي أبدًا لذكر أمر أزمتك الطارئة مع الخصوبة، طالما أن الأمر في طريقه للعلاج.

أتممت كل الطقوس والإجراءات والخطوات الروتينية. بعد عامين كنت في منزل زيجتك، تمارس مع رباب أجمل أحلامك. كنت سعيدًا، تشعر أخيرًا بالهدوء والارتخاء. لكن الشهور تمضي والبطن لم تنتفخ، صار الأمر مقلقًا للزوجة الشابة وأهلها. وصارت الكلمات ذاتها تلقى أمامك في كل تجمعات العائلة، عن ضرورة الكشف عن أسباب ذلك التأخير، وأنت ترد في كل مناسبة أنك غير متعجل الأبناء، وأن كل شيء بيد الله. ولكن إلى متى يمكنك أن تحتمي خلف جدار الزمن؟ كان لابد للزمن وأن ينسحب من أمامك ويتركك عاريًا. فها هي كل الحجج تنفد، وشهور الانتظار باتت عامًا وبعض عام. الآن لم يعد أمامك سوى أن تحمل أحلام زوجتك المستحيلة، وتقذفها في كوب من البلاستيك المعقم، وتنتظر نتيجة تحليل تعرف - منذ أعوام - نتيجته. وقتها تمنيت أن تظهر فحوصات زوجتك أية علة تجعلك تختبئ

خلفها، وتضع المؤشر بينكما على وضع التعادل، لكن زوجتك سيدة طبيعية كما أكدت نتيجة التحاليل الأولى. وهنا أقول: الأولى، لأنك نجحت يا صالح في استخراج نتيجة ثانية تقضي بما شئت. الأمر لم يكلفك الكثير، مجرد ورقة قام صديق لك بتصميمها بنفس هيئة أوراق معمل التحاليل الشهير، عن طريق صورة ضوئية ملونة لورقة التحليل الحقيقية. لكن في ورقتك الجديدة قمت بتبديل بعض الأرقام. مجرد أرقام بسيطة. لكنها فتحت اتجاهًا مغايرًا لحياتين متشابكتين. الآن صرت أنت السليم، وهي المعتلة. وتركتها تتعذب نفسيًا وجسديًا في رحلة علاج طويلة مرهقة، وأنت تشاهد مؤديًا دور الزوج المتعاطف، الصابر على ابتلاء الله.

تركتها لوقت تحترق بأزمتها المصنوعة بيديك، ثم أعلنت لها - مع قبلة على اليد - أنك لا تبالي بالأبناء، وأنك لا تريد سواها. وطلبت منها - بما يشبه الحسم - أن تتوقف عن السعي بين الأطباء، وأن تترك الأمر في يد الله. لكنها رفضت، وبقيت محمولة كرضيع عاجز على كتف أمها من طبيب إلى الآخر. وأنت تسعى وراءهما وتلملم من خلفهما نتائج التحاليل الحقيقية، وتصيغ نتائج جديدة كما شئت. لكن كان لابد وأن تحدث الهفوة، وتنفلت الأمور من بين يديك يا صالح. طبيب كبير وجهها لمعمل تحليل آخر أقل شهرة، لكنه يثق في نتائجه. والنتيجة راوغتك وبلغت يد الزوجة -قبل أن تلعب لعبتك- لتثبت سلامتها بما جعل الشك يطرق صدر الطبيب الكبير، فهو يعلم أن علاجه لن يستدعي نتيجة سريعة وباهرة كتلك. فقرر التأكد من صحة نتائج المعمل القديم. بمكالمة هاتفية وضعت أمام الطبيب الكبير كل نتائج التحاليل التي أجرتها الزوجة طيلة عامين. النتائج الحقيقية الصادرة عن سجلات المعمل، وليست تلك الصادرة عن شياطينك يا صالح. لتنكشف الحقيقة. ولا تجد أمام الضغوط سوى الاستسلام والاعتراف مستهينًا بفداحة الأمر، وقد قررت أن تضع حدًا لكل الألاعيب. وأول لعبة عليك إنهائها، هو تلك الزيجة نفسها. لكنك قررت أن تنهيها بطريقتك. فتحملت كل ما تلى ذلك من أزمات. عراك، وكآبة، وتدخلات، ووساطات، وصراعات، وشروط، وابتزاز. حتى قدتها وأهلها للمسار الذي تنشده، المحكمة، ثم حكم بالخلع يضمن لك ألا تهدر عليها أية أموال تحت مسمى الحقوق. عام إضافي من الصراع بذلته عن طيب خاطر، حتى لا تخرج من الأزمة وقد خسرت كل شيء. وقد تحقق لك ما شئت.

الآن يا صالح ليس لك سوى الوحدة، وكآبة الأم، وذكريات علاقة حب، لم تزل تقنع نفسك أنك كنت طرفها المظلوم. حتى سمعت عن الحوت، والمراكب الغارقة، فتطوعت لتلك المهمة البعيدة جغرافيًا عن حياتك.

***

كنت الآن أراه بوضوح. وكان هو يراها في عيني، الحقيقة. فبدا خائفًا. قلت له لأستمتع برؤية المزيد من الألم والخوف على وجهه:

«هذه هي حقيقتك. أنت كاذب، أناني. هذه هي خطيئتك»

نهض من مكانه، فبدت قامته الطويلة أكثر نحولا من المعتاد، وظهرت الفراغات السوداء بطول جسده، وتخرق حتى ملابسه..

«أنا بلا خطيئة، وغدًا سيحكم الحوت بيننا»

تأملته مشمئزًا، ثم أوليته ظهري لأمضي في طريقي، وأنا أقول:

«لا غد لك، أنت هالك»

سمعته يصرخ غضبًا، قبل أن أشعر بانقضاضته تسقطني أرضًا. حاولت التملص منه، لكنه كان قويًا، كيف لهذا النحول والضعف أن ينتجان كل هذه القوة؟! قيد حركتي على الأرض، ثم دفع فمه إلى كتفي وقضمه بأسنانه. أسنان حادة أدمت كتفي ودفعتني للصراخ ألمًا. حررت يدي اليمنى واعتصرت خصيتيه المعطلتين، فصرخ وابتعد عني. نهضت إليه متأهبًا، فعاود انقضاضته. إن كنت رأيتنا وقتها فمؤكد أنك شعرت بتلك الرهبة. عملاقان منهكان يتقاتلان بين الضوء والظلام. دفع رأسه في بطني ينطحها ككبش هائج. تألمت، فمد ذراعاه يلفهما على خصري ليرفعني ويطرحني أرضًا على ظهري. رفعت ركبتي لحدود وجهه، لكنها اصطدمت بذقنه بضعف، فلم تحدث الضربة فيه أي أثر. أطحت قبضتي في ذقنه. كانت تلك ضربة قوية، ارتج لها للحظات، لكنه كان يتعافى بسرعة. تصارع مع جسدي ليثبت يداي تحت ثقل فخذيه. بدت خطته واضحة، يريد شل حركتي ليتمكن من خنقي. حررت إحدى يدي وجذبته من شعره بعنف، فألقيت جسده مجاوزًا لجسدي. التفت محاولا اعتلاء صدره، فزمجر كحيوان جريح، وصار يلوح بقبضتيه في الهواء عشوائيًا عساهما تطالان من لحمي أي قدر. أفلت من ضربتين أو ثلاثة، ولكن أصابتني الثالثة أو الرابعة في عيني، فمادت بي الأرض، وفقدت اتزاني للحظة كانت كافية لأن يتبع ضربته بشقيقتين لها أكثر قوة. انهرت مرة أخرى على ظهري. عاد ليعتليني. هذه المرة لم يحتج لبذل الجهد لشل حركتي. أحكم قبضتيه على رقبتي وشرع يخنقني. كانت محاولات التملص من جانبي ضعيفة بائسة. وكان الجنون يمنحه قوة مخيفة. الأنفاس انقطعت عن صدري، وغامت الرؤية في عيني. لكن أذني كانت تعمل بكامل قوتها، تلتقط كلماته المشبعة بالكراهية..

«عن أية خطايا تتحدث؟ أنا الضحية هنا. أنا مجرد مريض مسكين، ولم أجد من يساندني. أنت تحاسبني بسبب عاهرتين تخليتا عني في محنتي وفي مرضي؟ أنا المظلوم

هنا. ولهذا اختارني الحوت لينقذني. ولهذا سأبني وحدي عالمًا جديدًا للمظلومين»

الآن تنسحب الروح مني. إن كنت تراني في هذه اللحظة فبالتأكيد سترى وجهي صار أزرقًا، أو ربما بنفسجيًا. وجهي متشنج. عيناي مفتوحتان على وسعهما، كاشفتان عن نظرة رعب وعدم تصديق. فجأة ارتج المكان بشدة، وسمعنا مرة أخرى ذلك الصوت الهادر الذي يدمي الآذان. صالح بدا عليه الرعب، ورفع يده عن رقبتي ليسد أذنيه وهو يصرخ. سعلت وأنا أعب الهواء، وأستعيد حياتي. صالح تراجع بظهره خائفًا. كان مرتجفًا، وكنت أتأمل خوفه شاعرًا بقدر من الاطمئنان. كانت تلك فرصتي لأنهض هاربًا، أو أرد عليه الهجوم. لكني لم أستطع التحرك. تراجع هو مسرعًا واختفى في ظلامه. توقفت الارتجافات والصوت الهادر فجأة. نهضت واقفًا، أنظر للأركان المظلمة، متأهبًا لرد هجوم متوقع. لكن الهجوم لم يحدث، وصالح لم يظهر مرة أخرى.

تراجعت عائدًا إلى مركبي. قطعت مسافة طويلة، وكنت متعبًا، أسير بصعوبة. أسرعت الخطوات بقدر ما يتحمله بدني. كنت أنظر خلفي مع كل خطوة، متوقعًا انقضاضة مباغتة. لكن صالح لم يكن هناك. بلغت موضع إقامتنا، فوجدت فاطمة واقفة أمام مركبها تتطلع باتجاهي وكأنما تنتظر عودتي. اقتربت منها فابتسمت في وجهي وقالت:

«هل وجدت مهربك؟»

قلت لها:

«بل وجدت شيطاننا»

قالت بعد تفكير:

مكتبة بيت الحصريات
MAKTABBAH.BLOGSPOT.COM

«إذن نحن الثلاثة هنا حقًا. فماذا ينقصنا؟»

أجبتها:

«تنقصنا الغواية. شجرة، أو تفاحة، أو أي شيء مشابه»

هزت رأسها معلنة عدم الاقتناع..

«وهل تتكرر الأشياء في كل مرة بذات الكيفية؟»

«لا أعرف»

تأملت لفترة قبل أن تقول:

«أشعر أننا عشنا غوايتنا وانتهينا منها. ولا شيء الآن يفصلنا عن البداية الجديدة»

عندها امتلأ المكان بضوء مبهر. هذا لا يمكن أن يكون سوى ضوء الشمس. أغمضنا عيوننا لفترة في محاولة لتجنب احتراقهما. عندما فتحت عيني كان يبدو الضوء ساطعًا من نقطة بعيدة. أشرت إليها أن تتبعني. قطعنا خطواتنا، وكل منا يبسط في الهواء كفه أمام عينيه ليحميهما. وكلما تقدمنا، كلما غمرنا الضوء والحرارة. كلما تقدمنا اغتسلنا. وصلنا لحد صار فيه السطوع حارقًا، وصارت الرؤية صعبة، فشعرت بيديها الرقيقتين تتعلقان في ذراعي ملتمستان الأمن. وشعرت بارتجافات جسدها الدقيقة، فزادتني شجاعة. الظلام لم يؤذنا يا صغيرتي، فهل يفعل الضوء؟ انتهت مسيرتنا إلى خارج فم الحوت. كانت الرمال البيضاء الناعمة تحت أرجلنا. والسماء فوقنا صافية، تحتضن في منتصفها شمسًا متوهجة. نظرت إلى فاطمة، كانت مبتهجة، ابتسمت لها، وقدمينا تنغرسان في نعومة الرمال الدافئة. نظرنا وراءنا فلم نر سوى امتداد بحر أزرق هادئ، ورأينا ما يشبه ظهر حوت عظيم يغوص في الماء. لقد رحل دون تفسير، أو حتى كلمة وداع. تقدمنا فوق الرمال نستكشف ما ظنناه عالمنا الجديد. حتى رأينا شجرة التفاح منتصبة، وعلى جانبيها بابين مغلقين منتصبين في الفراغ. نظرنا إلى بعضنا. سألتني فاطمة:

«أهو العالم الجديد؟ أم شجرة التفاح التي كنت تبحث عنها؟»

هززت رأسي بمعنى الجهل، ثم تقدمت، في حين تسمرت هي في مكانها. بلغت الشجرة فرأيت ذلك الرجل جالسًا تحتها. عجوز متدثر بعباءة ثقيلة، ووشاح يلف رأسه. رفع رأسه نحوي متأملا. ما معنى هذا؟ ألم ينتهي العالم؟ أم أن هذا هو ناج آخر؟ وما دوره في تلك العلاقة، إن كنا قد تركنا الشيطان خلفنا؟ أم ترانا كنا مخطئين في توزيع الأدوار؟ التفت إلى فاطمة أطلب منها التقدم، فقد كنت أريد أن ألتمس الشجاعة في قربها، فتقدمت ووقفت بجواري. بادرت هي بسؤال العجوز:

«من أنت؟»

ابتسم العجوز وقال:

«أنا حارس الحكاية الأخيرة»

كنت أنا السائل هذه المرة:

«أية حكاية؟»

***

حكاية البحار الأناني وجزيرة القدر..

لم تكن تعرف وأنت تصعد إلى سطح المركب في ذلك النهار، أنك ستركب البحر للمرة الأخيرة. كان القبطان يدور ببصره في وجوهكم المغبرة، وأجسادكم النحيلة المتكدسة على الرصيف أمامه، ليختار أقلكم بؤسًا وهزالا ليمنحه آخر وظيفة متاحة ضمن طاقم المركب. وكنتم تتدافعون أمامه، كل منكم يريد أن يظهر نفسه، ويحتل بقعة مميزة تخطف أبصار الرجل. وحدك كنت منزويًا في ركن اليأس وقلة الحيلة. نظراتك إلى الأرض، وجسدك متخشب في حيز ضيق. يعتريك اللا أمل، وتعرف أن خيبة كل يوم لم تفارقك بعد. لكن القبطان برغم هذا اختارك أنت. وهذا يا صديقي أمر اسمه القدر.

صعدت إلى السفينة عازمًا على استغلال تلك الفرصة بأقصى ما تملكه من إخلاص وتفاني في العمل. والحق أنك صدقت العزم طوال الرحلة، حتى أن القبطان أبدى إعجابه بك في أكثر من موقف، برغم هزالك، والضعف البادي على بدنك، لكنك كنت حمولًا ومثابرًا، مطيعًا، راضيًا. تعمل كثيرًا، وتأكل قليلا، كنت عاملا مثاليًا في نظر أي صاحب عمل، وهو ما كنت تقصده لكي يجعلك القبطان عضوًا دائمًا في طاقمه، بدلا من انتظار ابتسامات القدر الشحيحة على رصيف الميناء، حيث تأكل الشمس وملح البحر من جلدك. بعد أسابيع في الماء، صرت تملك اليقين باقتراب تحقق حلمك. القبطان سعيد بعملك، زملائك يتقبلونك بشكل جيد، كل شيء يسير كما تحب. لكن ما في السماء خارج نطاق سيطرتك أيها الصبي. ثار البحر ذات ليل، وهاجت الرياح، وملأت الأمطار عيونكم وأنوفكم ومسام أجسادكم. أنت لم تركب البحر سوى مرات قليلة، لكنك تعرف الموت حين يكون قريبًا، والأهم أنك تراه في أعين الرجال الأكثر منك خبرة وبأسًا حولك. هناك فزع، وارتجاف، وبرودة تخرج مع الأنفاس. سمعت القبطان يهمس لمساعده الأول بالتحقق من جاهزية قاربي النجاة، فأدركت أن حياتك الجديدة الموعودة انتهت مبكرًا. انفصلت لحظتها عن الجنون الدائر حولك. تسمرت في مكانك. توقفت عن طاعة الأوامر، وتوقفت حتى عن تلقيها، وقد شلت مداركك. تفكر فقط في أمر واحد، هل يتسع قاربي نجاة لكم جميعًا؟ لكم من الأيام ستكفيكم المؤن على متن القاربين؟ تقول لنفسك أنك لست أنانيًا، أو مجرمًا، لكنك مسكين، لك أم مسكينة، وأخوة مساكين ينتظرونك. كما أنك شاب، ولك عمر مديد مفعم بالأحلام ينتظرك. كانت المركب تغوص، وجهود الطفو بها تثمر عن الفشل، عندما كنت تتسلل تحمل في الخفاء صناديق الطعام وقوارير الماء من المخزن. أنت لا تعرف قدر الحيرة التي حدثت وراءك على المركب عندما اكتشف البحارة أن قاربي النجاة مفقودين. لا تعرف أن أحدًا لم يتهمك فيما حدث، فقد ظنوا أن القاربين انقطعت حبالهما وهويا في الماء. فقد كان من الصعب أن يلاحظ أحد

غيابك في هذا الليل الحالك الصمت، وحتى إن لاحظ غيابك أحد، فالمتهم الأول سيكون البحر الذي ابتلع منهم الكثيرين في هذه الليلة.

في الصباح استقر حال الطقس، وهدأت صفحة الماء، فتركت المجدافين ونلت قسطًا من النوم، بعد ليلة متعبة. كنت مطمئنًا أن معك من المؤن ما يكفيك حتى لحظة النجاة، فقد استأثرت لنفسك بمؤونة تكفي لعشرين شخصًا. تقول أن القرار كان قاسيًا على نفسك، لكن لا شيء أغلى من الحياة. فترصتك وحدك للنجاة أكبر بعشرين مرة من فرصتك وأنت ملتصق بأجسادهم النتنة المتقيحة في هذا القارب الضيق. تقول أنك كنت ستترك لهم القارب الآخر، وأنا أشهد أنك كنت ستفعل. لكنك في لحظة الهرب تخيلت أنهم قد يدركوك بالقارب الآخر فيقتلونك عقابًا، أو ربما يفعلون بك ما هو أسوأ من القتل، فقمت بقطع حبال القارب الآخر وتركته يهوي في البحر حزًا. والآن تنام في قاع قاربك مطمئنًا، لا تشعر بأي ندم أو حزن، تشعر أن ما قمت به كان تضحية واجبة، لكي ينعم العالم ببقائك حيًا!

عندما فتحت عينيك شعرت أنك تفتقد اهتزازات القارب. رفعت رأسك متطلعًا، فرأيت قاربك مزروعًا في رمال ناعمة، راسيًا على شاطئ جزيرة صغيرة، صغيرة جدًا حتى أنك كنت ترى منتهاها من موضعك هذا. هبطت من القارب. أمامك مباشرة، فوق ارتفاع قليل، في نقطة بدت لك وكأنما هي مركز الجزيرة، رأيت شجرة وارفة. تقدمت منها. كانت أوراقها كثيفة ومخضرة، لكن لا ثمار لها. وبجوار الشجرة وجدت بابين منتصبين يغلقان على اللاشيء. درت حول البابين وأنت تتساءل عن المجنون الذي وضعهما هنا. عندها رأيته أمامك. ربما ليس هو المجنون الذي كنت تقصده! أو على الأقل هذا هو ما قاله لك. فقد أكد لك أنه فقط حارس للبابين، وأنت كنت تقسم أن الجزيرة كانت خالية منذ ثانية من أي بشر سواك. فمن أين جاء هذا الرجل؟ الرجل تربع أمامك على الأرض، وقال: «أنا هنا لأشرح لك صعوبة الاختيار». لم تفهم ما يقصده، فأخبرك أن عليك أن تختار أحد البابين لفتحه، علمًا أن باب منهما سيقودك إلى جنة من كنوز ونعيم ما كنت لتحلم بهما، والباب الآخر سيدخل للأرض شرورًا وهلاكًا ما كنت لتحلم بهما. تعجبت لكلماته. سببته، وسببت الجنون المتطاير حوله، لكنك لم تستطع مقاومة الإغراء في كلماته، ماذا إن لم يكن مجنونًا؟ ربما تكون على بعد خطوة من أعظم كنوز الدنيا كما يقول. قررت أن تجرب، طالما لن تخسر شيئًا. لكن الرجل -وكأنما قرأ أفكارك- قال: «إن اخطأت الاختيار فستخسر الكثير. ستخسر العالم كله. شرور عظيمة ستدخل من الباب الخاطئ». أوقفتك كلماته قليلا مفكرًا، سألته عن مصيرك الشخصي إن فتحت الباب الخاطئ، فأخبرك أن الشر الذي سيصيب العالم سيكون أكبر، فشعرت أن في كلماته تشجيع لك على الاختيار. وقفت تنقل بصرك بين البابين، ثم اخترت أحدهما، ومددت يدك وفتحته. ريح ساخنة عبرت منه، رائحة نتنة، وغبار أسود، ثم

اختفى البابان. نظرت إلى الرجل، فهز رأسه في حزن وقال: «**منذ الآن سيعرف العالم الخيانة، والإبادة، والعنصرية، والمجاعة، والعقوق، والدياثة**» شعرت بحزن لأنك أخطأت الاختيار. سألت الرجل: «**وماذا عن كنزي؟**». لكن الرجل اختفى.

قطعت الخطوات عائدًا إلى قاربك لكنك لم تجده. ليس شيء هنا سوى نعومة الرمل، وملح البحر. عدت للشجرة فوجدتها تثمر فاكهة بلون أحمر، قضمتها، فأعجبك طعمها. تربعت على الأرض في ظل الشجرة وأكملت أكل الثمرة مستمتعًا.

***

انتهى العجوز من حكايته فلفنا الصمت. تبادلت مع فاطمة نظرة، قبل أن تتبادل مع العجوز حيرتها في سؤال:

«**أهما نفس البابين؟**»

هز العجوز رأسه موافقة..

«**إنما فقط كنزكما هو الحياة الجديدة**»

أشرت إلى البابين مستفهمًا:

«**أحد البابين يقودنا إلى الحياة الجديدة؟**»

أكمل الرجل:

«**والآخر يقود إلى نهاية الأرض**»

ابتسمت فاطمة وعلقت:

«**هذا يجعل الاختيار إجباريًا**»

تأملت وجهها لحظتها. كانت جميلة، مغرية. أحقًا مستقبل العالم هو من يدفعني للاختيار، أم رغبتي في اقتسامه معها؟ كانت تتأملني وفي عينيها تبدو شبح أفكار مماثلة. نحن الآن لا ننتظر أمرًا، ولا نحمل عبئ الواجب. نحن نحمل رغباتنا في استكشاف كل منا الآخر. أشعر أني الآن لست مضطرًا لبناء عالم جديد، وإنما أريد أن أبنيه. لذلك قلت:

«**دعينا نختر**»

كان على وجهها علامات تفكير، وكآبة المعضلات غير المحسومة. قالت للعجوز:

«**هل يوجد ناجون غيرنا؟**»

ابتسم العجوز وقال:

«حتى وإن وجدوا، فلكل واحد منهم اختياره»

هزت فاطمة رأسها متفهمة، وقالت:

«لكل نسخته من الحكاية»

فاتسعت ابتسامة العجوز وكأنما يؤيد كلماتها. نظرت لي فاطمة. أمسكت يدي، فارتجف قلبي، ثم قالت:

«دعنا نختر»

تأملنا البابين لفترة، وبغير اتفاق امتدت سبابتانا تشيران إلى ذات الباب، وصوتينا ينطلقان بصيحة موحدة:

«هذا»

ابتسمنا لهذا التوافق بيننا. مددت يدي وفتحت الباب، فكان خلفه ظلام. تراجعت فزعًا، وقد أدركت للظلام معنى مخيفًا، لكن العجوز ضحك، ثم قال:

«للميلاد نفس ظلمات الموت. إنها الحياة الجديدة. أحسنتما الاختيار»

تبادلت مع فاطمة نظرة ابتهاج، وابتسمنا، وضحكنا، ومالت برأسها تضغطه على كتفي، ومن عينيها سالت دمعة فرح. لكننا لم نتقدم -وكأنما نهاب المجهول القادم- حتى قال العجوز مشجعًا:

«تقدما الآن. هناك عالم ينتظركما لتبنياه سويًا»

اعتصر كل منا كف الآخر، وعبرنا الباب، اجتاحنا الظلام الذي سرعان ما صار ضوءًا ساطعًا، بمجرد أن انغلق الباب وراءنا.

***

(6)

نزلت بالجزيرة في منتصف نهار صيفي. أزعجني الهدوء، وربضت على أنفاسي لسعات برد طفيفة في الهواء. شعرت بفقد للضجيج والسخونة، وكدت أشعر بندم، تغلبت عليه بأن رسمت ملامحها في الهواء، لأذكر نفسي بسبب هربي من بطن الحوت، فأنا لم أزل أشتهيها. هي العالم الجديد، ولا عالم لي سواها. تقدمت بصعوبة نحو تلك الشجرة. كانت الفجوات السوداء في جسدي تتزايد، ومعها أزداد ضعفًا، وكأنما أتآكل. سمعت صوت هديره، فالتفت إلى البحر، فرأيت ذيله العظيم يرتفع في الهواء فيداري الشمس، ويجلب للعالم ليلا مؤقتًا. كان وكأنما يلوح لي مودعًا. هل حقًا هربت منه، أم أنه هو من ألقي بي هنا؟ ولماذا هنا؟ لحظتها رأيتها. آثار أقدامهما على الرمل، تنقش مسارًا نحو الشجرة.

تقدمت من الشجرة فرأيت بابين مغلقين على جانبيها، وعجوز جالس في ظلها. سألته:

«من أنت؟»

قال:

«أنا حارس الحكاية الأخيرة»

قلت له:

«تبًا للحكايات. أخبرني أين ذهبا؟»

أشار إلى البابين، وقال:

«اختارا أحد هذين البابين، وعبراه إلى عالمهما الجديد»

نظرت إلى الرمال فدلتني آثار الأقدام إلى الباب الصحيح. أشرت إليه وقلت:

«اختارا هذا الباب؟»

هز رأسه موافقًا، فتقدمت من الباب. أمسكت بمقبضه، ثم توقفت مفكرًا. من قال أن المسارات المختلفة لا تؤدي إلى ذات النقطة؟ اتجهت إلى الباب الآخر، وقلت للعجوز:

«هذا هو بابي. أليس كذلك؟»

ابتسم العجوز:

«هو كذلك، من قبل أن تولد»

قلت له:

«وإلى أي سيقودني؟»

قال:

«إليهما»

ابتسمت منتشيًا، وأدركت أني أحسنت الاختيار. نظرت للعجوز وقلت:

«لا شيء محتوم»

ثم فتحت الباب وعبرته، وانغلق ورائي.

الإسكندرية

14أبريل 2020